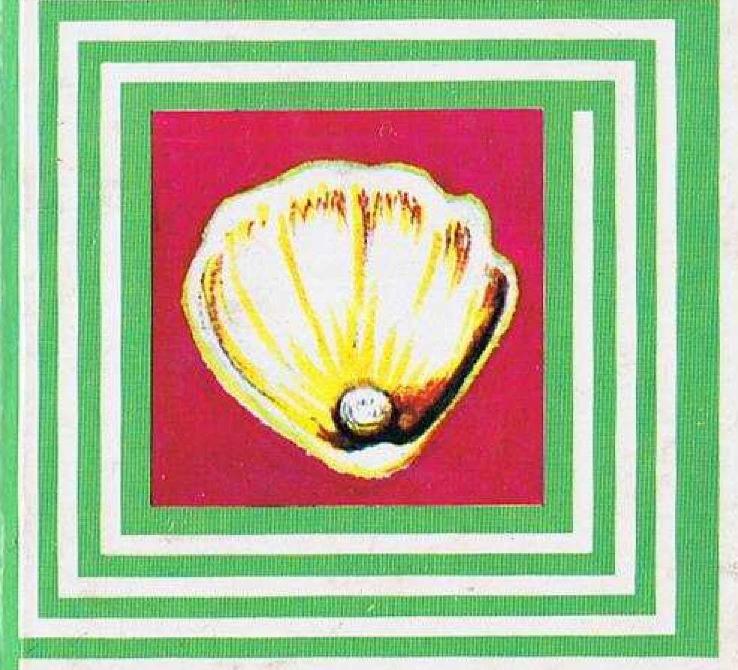
اللؤلؤة



قصص عالمية

اللـؤلـؤة

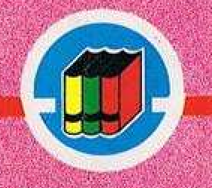




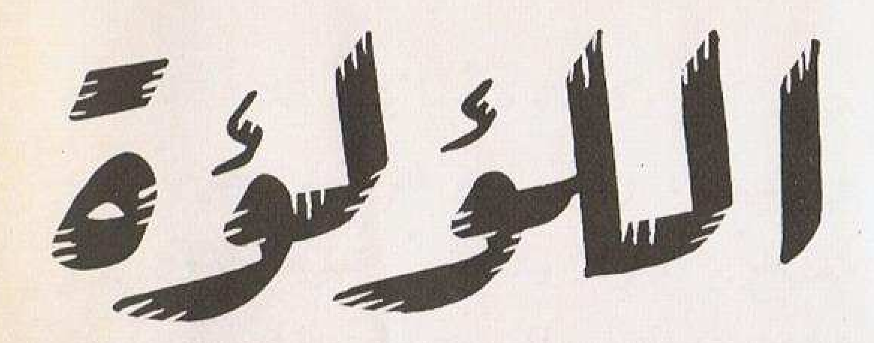
رحلة حول العالم
اللؤلؤة
روبن هود
جزيرة الكنز
الكونت دي مونت كريستو
رحلة جلفر
أبطال اليونان
شهرزاد والسلطان
قطار الأشباح
التوأمان
النائم الضاحي
الزنبقة السوداء
ريمي اللقيط
الفرسان الثلاثة
سجين زندا
رسالة من عالم آخر
علي بابا والأربعين حرامي
أليس في بلاد العجائب
عش المرأة

دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع

طرابلس ـ لبنان ص.ب ٥٧ هاتف : ٦٢١٩٥٢ - ٦٣١٢٨٢



قِصَصٌ عَالَمِيَة



تأليفُ

جون إرنست ستنبك

ترجَمة

سيف الدين الخطيب

دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع

طرابلس لبنان : تلفون ٦٣١٢٨٢

جميع الحقوق محفوظة
طبعة ١٩٨٢

- ١ -

استيقظ كينو وكان الوقتُ ما يزالُ ظلاماً . فالنّجوم تتألّق في السماء ، ونهارُ اليوم قد رسم خطوطاً باهتةً لنور الصباح . الدّيوكُ والخنازيرُ تُنبىءُ بقدوم يومٍ جديد . وخارجَ المنزلِ المصنوعِ من القش سربٌ من الطّيورِ الصغيرةِ ترتعشُ من البرد وترفرفُ بأجنحتها .

فتح كينو عينيْه ونظر إلى الباب الذي يتسرّبُ الضّوءُ منه ، ثم إلى الصندوق المُعلّق الذي نام فيه كويُوتِيتُو . ثمّ نظر أخيراً إلى زوجته ، جوانا ، التي كانت ترقدُ إلى جانبه على الحصير ، وهي تلفُّ نفسَها بشال رأس أزرق . وفي هذه الأثناء كانتْ عيْنا جوانا مفتوحتَين أيضاً . ولا يذكُرُ كينو أنّه قد رآهما مُغلقتَين عندما كان يستيقظ .. كانتْ عيناها السّوْداوانِ تعكسُ مشهد النّجوم

المتألّقة ، وكانتْ تنظرُ إليه تماماً كما تفعلُ عندما كان يستفيق .

سمع كينو تكسُّرَ أمواجِ الصباح على الشّاطىء ، فأغلق عينيْه مرّةً أخرى لِيُصغيَ إلى موسيقاه . ربّما كان هو الوحيدَ الذي يفعلُ ذلك ، أو ربّما جميعُ مُواطنيه كانوا يفعلون مثلَه . فمواطنوه كانوا في القديم ينظمون الأغاني ، حتّى أنّ ما يُشاهد أو يُفكّر به أو يُسمع كان يُصبحُ أُغنية . حدثَ هذا منذُ وقتٍ طويلٍ جداً . بقيت الأغاني ؛ وكان كينو يعرفُها ، ولم يُضف إليها أغانيَ جديدة . وهذا لا يعني أنّه لم تكن هناك أُغنياتٌ شخصيّة . في رأس كينو أُغنيةٌ الآن ، أغنيةٌ واضحة وناعمة ، ولو كانتْ له القدرةُ على أنْ ينظمَها ، لَكَان أطلق عليها اسمَ أُغنيةِ العائلة .

ونهضتْ جوانا ومشتْ على قدميْها العاريتين القاسيتين نحو الصّندوق المعلّق حيث كان ينامُ كويوتيتو ، وانحنتْ فوقه وهمستْ بكلمةٍ مُطمئنة . نظر كويوتيتو إليها

لبعض الوقت ، ثم أغلق عينيه ونامَ من جديد . ذهبتْ جوانا إلى النّار ، وأحيتْ اشتعالَها من جديد .

نهض كينو ودثّرَ رأسَه وأنفَه وكتفيْهِ بالحِرام ، ثمّ أزلجَ قدميْه في فردتيْ الصّندل ، وخرجَ من المنزل لِيُشاهدَ الفجر .

وفي مكانٍ ما خارجَ المنزل ، جلس كينو القُرفصاء ، وأخذ يتأمّلُ ما حوله من مشاهدَ اعتاد على رُؤْيتها كلَّ صباح . نداءُ العائلة ينطلقُ من ورائه ، وتتجلّى ترنيمةُ العائلة في حجر الطاحون حيث تعملُ جوانا عليه لإعداد كعك الصباح .

وأقْبلَ الفجْرُ ، وأشرقتِ الشّمس ، وأخفضَ كينو بصرَه ليحميَ عينيْه من حدّة الوهج . واستطاع أنْ يسمعَ طقطقةَ دقيق الكعك ، ويشمّ رائحتَهُ اللّذيذة . وتأمّل انشغالَ النّمل في سعيه للرزّق . فصار يتأمّلُ صلتَه بالله عَبر هذه الحشرات . وجاء إليه كلبٌ أسودُ يسعى ، فهمس في أُذنه بكلمةٍ ناعمةٍ رقيقة جعلته يستكينُ ويركدُ

هادئاً . لقد كان هذا الصّباحُ مثلَ كلّ صباح ، بل ويزيدُ عنها بكماله .

سمع كينو صوتَ تزييقِ الحبل عندما حملتْ جوانا كويوتيتو خارجَ الصّندوق المعلّق ، ونظّفته ، ثمّ وضعته في أُرجوحة من الشبّاك ؛ وأخذتْ تُغني أغنيةً قديمة ؛ هي جزءٌ من أُغنية العائلة . لقد صحا العالم الآن ، ونهض كينو واتّجه إلى بيته . وعندما وَلَجَ المنزل نهضتْ جوانا من قرب النّار ، وأعادتْ كويوتيتو إلى صندوقه المعلّق ، ثمّ أخذتْ تُمشّط شعرَها الأسود ، وربطتْ جدائلَها بشريطٍ أخضرَ رفيع . جلس كينو القرفصاء قُربَ النّار وأخذ يُقلّبُ قطعةً من كعك الدّقيق ، ثمّ غمسَها في صَلْصة والتهمها ؛ بعد ذلك شرب قليلاً من شراب البولكْ وكان هذا هو فطورَه .

ولدى انتهائه من تناول فطوره ، جاءتْ جوانا قربَ النّار وتناولتْ بدورها الفطور . ولم تكن هناك حاجة لحديثٍ بينهما ، فقد سبَق لهما أنْ تحدّثا ما يجب [illegible] حدّث

به عادةً . وأطلق كينو نهدةَ رضى وقناعة ؛ وكانتْ عبارةً عن حديث .

في هذه الأثناء كانتِ الشّمس تُدفىء المنزل القش ؛ وقد سقط أحدُ قضبانِها الشُّعاعيَّة على الصّندوق المعلّق الذي يركد فيه كويوتيتو . ولاحتْ منهما نظرة إلى الصّندوق ، فتسمّر كينو وجوانا في مكانهما . فقد شاهدا عقرباً يتحرّك ببطء على حبل الصندوق المعلّق للطّفل ، يجرّ وراءه ذيلَه اللّاسع ، والذي يستطيع به تَسديدَ ضربةٍ خاطفة . صارتْ أنفاسُ كينو تعلو وتهبط وهي تطلق صوتاً كالصّفير ، اضطرّ إزاءها إلى فتح فمه .

ها قد أقبلتْ أغنيةٌ جديدة : أُغنيةُ الشرّ . أُغنيةٌ يجيءُ بها عدوٌّ للعائلة . إنّها تصرخُ بوضوح . بدأ العقرب يهبطُ زاحفاً على الحبل نحو الصندوق . جوانا بدأت تتمتمُ تعويذةً قديمةً تحفظُ من الشرّ والأذى ؛ وفوق ذلك أخذتْ تستنجد بِحرارة بمريم عليها السلام ...

لكنّ كينو كان يتحرّك في الغرفة جيئةً وذهاباً وبهدوء . يداهُ أمامه ، وعيناه على العقرب . وقريباً منه كويوتيتو

يضحكُ في الصّندوق المعلّق ويرنو إليه بناظريْه ويمدّ يديْهِ نحوه .

ويبدو أنّ العقربَ قد أحسّ بالخطر عندما اقترب منه كينو ، فتوقّف . ووقف كينو بصمتٍ تام . استطاع أن يسمعَ جوانا وهي تهمسُ بتعويذتها القديمة مرّةً أخرى ، كما استطاعَ سماعَ العزفِ الشرّير للعدو . لم يتحرّك إلّا عندما تحرّك العقرب ، وهو يحملُ معه الموتَ القادم . امتدّتْ يدُ كينو ببطءٍ إلى الأمام ، فارتفع الذّنبُ المدبّبُ بالشوْك . وفي هذه الأثناء هزّ كويوتيتو الذي كان يضحك الحبلَ فسقط العقرب . وقفزتْ يدُ كينو لالتقاطه ، لكنَّه مرَّ من بين أصابعه ، وسقط على كتف الطّفل ، فَرَسَا عليه وضربَ ضربته .

فأسرع إليه كينو وأمسكه بين أصابعه وسحقه ، وألقى به إلى الأرض وداس عليه ؛ فيما كان كويوتيتو يصرخُ من الألم في عُلبة نومه . حملتْ جوانا طفلَها . ورأتْ مكانَ الثّقب الأحمر الذي أحدثتْه عقصة العقرب ، فوضعت شفتيْها عليه وأخذتْ تمصّ وتبصقُ .. تمصّ

وتبصقُ .. فيما كويوتيتو يصرُخُ من الألم . وهبّ الجيرانُ على صُراخ الطّفل ، وخرجوا من منازلهم القش ، وبينهم شقيقُ كينو ، جوان توماس ، وزوجتُه البدينة ، أبُولوينا ، وأطفالهما الأربعة ؛ وقد سدّوا منفذ الباب ، فيما بقيَ الآخرون من الجيران يحاولون رؤية ما يجري في الدّاخل . وقد مرّر مَنْ كان يقفُ في الأمام إلى مَنْ وراءهم كلمةَ « العقرب » . لقد لُدغ الطّفل .

كانتْ جوانا ما تزالُ تمصّ وتبصق ؛ حتى أنّ الثّقبَ قد توسّع قليلاً وأصبح ما حوله بياضاً من الإمتصاص ، غير أنّ الورمَ الأحمر أخذ يتمدّدُ ويتوسّع . لقد عرف الجميع ما كان يعنيه العقرب : إنّ إنساناً بالغاً قد يمرضُ كثيراً من جرّاء لسعته ، لكنّ الطّفل قد يتعرّض للموت بسهولة من السّم ..

كانوا يعلمون بأنّ موتَ الطّفل سيكون على مراحل : التورّم ، ثمّ الحُمّى ، ثم انسدادُ البلعوم ، ثمّ تشنّجاتٌ عضليّة مُؤقّته في المعدة ؛ ثم يموتُ كويوتيتو إنْ كان قد دخل إلى جسمه سمّ كافٍ لقتله . غير أنّ ألمَ اللّسعة

قد تلاشى ؛ وتحوّلتْ صرخاتُ كويوتيتو إلى أنين .

وتعجّب كينو من رباطة جأش زوجته جوانا في هذا الموقف . لقد بدتْ قويّةً وصابرةً أكثر من الرّجال . وكانتْ دهشتُه بالغةً عندما صرختْ تقول : « الطّبيب ، أحضروا الطّبيب » .

ومرّتْ هذه الكلمةُ بين مجموعة الجيران الذين أخذوا يردّدونَها فيما بينهم : « جوانا تُريد الطّبيب . » إنّه لَأمرٌ عجيب ، إنّه لَشيءٌ يستحقّ الذّكرَ في أنْ تطلبَ طبيباً . الحصولُ على طبيب أمرٌ جديرٌ بالإِعتبار . فالطّبيب لا يحضرُ إلى لُمَّةٍ من بيوت قش . فَلِمَ يأتي ، وهو الذي يجني ربحاً أكثر عندما يعتني بأطفال الأغنياء الذين يعيشون في منازل مصنوعة من الأحجار والجبس ؟

« إنّه لن يأتي » ، قال النّاس الذين تجمّعوا في السّاحة . « إنّه لن يأتي » ، قال النّاسُ الذين وقفوا على الباب ، وانتقلتِ الفكرةُ هذه إلى كينو ، فقال لزوجته جوانا : « إنّ الطّبيبَ لن يحضر. » فنظرتْ إليه بعينيْن باردتيْن كاللّبؤة .. لقد كان هذا الطّفلُ هو طفلَها

الأوّل ـ وهو تقريباً كان كلّ شيء في عالم جوانا . وقد لمس كينو تصميمها ، ودوّى لحنُ العائلة في رأسه بنغمةٍ فولاذيّة .

قالت جوانا : « إذنْ يجب أنْ نذهبَ إليه . » ثم وضعتْ شالَها على رأسها ، وجعلتْ من أحد أطرافه حمّالةً لتحملَ عليها الطّفل المتأوّه ، ومن طرفٍ آخر غطاءً على عينيه لتحميَه من النّور . وخرجتْ من المنزل يتبعُها زوجُها والجيران . لقد أصبحَ هذا الأمرُ شأناً من شؤون الجيرة . الجميع يتقدّم الخُطى نحو المدينة . جوانا وكينو في المقدّمة ، وخلفهما جوان توماس وأبولونيا ثمّ جميعُ الجيران وأطفالهم . وأخيراً وصلوا إلى مكانٍ توقّفتْ عنده منازلُ القش ، وبدأتْ تلوحُ منازلُ الحجارةِ والقرميدِ الأحمرِ حيث الحدائق الباردة في الدّاخل ، وحيثُ تُسمع طرطشةُ مياهها الباردة على البلاط السّاخن ، وصوتُ الطّيور المقفّصة وهي تُغنّي ...

ومرّ الموكبُ من أمام الكنيسة .. ووقف النّاسُ هناك ولا سيّما المتسوّلون الذين كانوا على درجةٍ عالية

من التخصّص في تحليل الأمور الماليّة ؛ وقفوا هناك يتأمّلون هذا الموكب ، وقد لفتهُم منظرُ جوانا في تنّورتها الزرقاء القديمة ، والدّموع تهمي من عينيها ، كما قرأوا تاريخَ بطانيّة كينو وعددَ المرّات التي بلغتْ ألفاً لغسل ملابسه ؛ وقد صنّفوهم في خانة الفقراء ، ثم عمدوا إلى مرافقتهم ليشهدوا أيَّ نوعٍ من الدّراما سيؤول إليه الأمر .

كان هؤلاء المتسوّلون الأربعة الذين يقفون أمامَ الكنيسة على علمٍ ودرايةٍ تامّة بكلّ ما كان يجري ويحدثُ في المدينة . كانوا على علمٍ بكلّ صغيرةٍ وكبيرة . وكانوا يقضون ليلَهم في مراكزهم أمام الكنيسة حتى لا تفوتهم شاردة أو واردة .. كانوا على معرفة تامّة بالطبيب .. بجهله .. بقسوته .. بِطَمعه للمال .. بشهواته وخطاياه . لقد شاهدوا جثثَ ضحاياه وهي تدخلُ إلى الكنيسة .. وها هم يتبعون الموكب ليروْا ما سيفعلُه هذا الطّبيبُ البدين البليد لطفلٍ عضّه العقرب .

وأخيراً .. وصل الموكبُ إلى الباب الكبير لمنزل

الطّبيب . فسمعوا صوتَ طرطشة المياه وغناءَ العص... .. وشمّوا رائحةَ اللّحمِ المقليِّ اللّذيذ المنبعث من داخل المنزل . وتردّد كينو لحظة .. فهذا الطّبيبُ ليس من قومه . إنّه من جنسٍ قد أقدم منذ ما يُقاربُ الأربعماية عامٍ على غزو وتجويع وسلب واحتقار جنس كينو . وكان أسهل عليه أنْ يقتُلَ الطّبيب من أنْ يتحدّث إليه ، لأنّ الجنسَ الذي كان يتحدّر منه الطّبيب كان يُخاطبُ جنسَ كينو كما لو أنّه من الحيوانات البسيطة .

وعندما رفع كينو يدَه اليُمنى ليدقّ جرسَ الباب ، غلتِ الدّماءُ في عروقه ، ودوّى لحنُ الأعداء في أُذنيْه ، وكزّ على أسنانه . وبعد لحظةٍ ما فُتح البابُ قليلاً . وكان الرّجلُ الذي وراءَ الباب هو أحدُ بني جنسه وتحدّث إليه كينو بلغته القديمة قائلاً : « الصّغير ـ المولودُ الأوّل ـ سمّمه عقرب . إنّه بحاجةٍ لمهارة الشّافي . »

أُغلقَ البابُ قليلاً ، وقد رفض الخادمُ التحدّثَ باللّغة القديمة ، وقال : « إنتظرْ لحظة . سأذهبُ لأخبره بنفسي.»

في غرفته جلس الطّبيب على سريره العالي ، وهو يرتدي حلّةً قشيبةً من الحرير من صُنع باريس ، وأمامه طعامٌ مختلف الأشكال والألوان ، وقد استقرّتْ عيناه على قطعةٍ من اللحم أسقطها في فمه وهو غيرُ قانعٍ بها . كان بديناً وصوتُه أجش . وعندما جاءه الخادمُ بادره بالقول : « ماذا ؟ » .

ـ « إنّه هنديٌّ صغيرٌ مع طفلٍ رضيع ، يقول بأنّ عقرباً قد لسعه . » .

وضعَ الطّبيبُ فنجانَه برفقٍ قبل أنْ تثورَ ثائرتُه وقال : « أليسَ أمامي عمل أفضل من مُعالجة لسعاتِ حشرةٍ لأطفال الهنود الصّغار ؟ إنّي طبيبٌ ، ولستُ بيطريّاً . »

ـ « أجل ، يا سيدي » . قال الخادم .

ـ « هل لديه مال ؟ » قال الطّبيبُ ، مُضيفاً : « لا ، إنّهم لا يملكون مالاً . أنا الوحيدُ في هذا العالم الذي يُفترضُ فيه أنْ يعمَل مُقابلَ لا شيء ـ وقد مَللتُ هذا . أُنظرْ إنْ كان لديه مال ! » .

فتح الخادمُ البابَ قليلاً ونظر إلى النّاس الذين كانوا في الإنتظار هناك . وفي هذه المرّة تحدّثَ باللّغة القديمة سائلاً : « هل لديك مال تدفعه للمعاينة ؟ » .

ومدّ كينو يدَه إلى مكانٍ سري في بطّانيته ، وأخرجَ ورقةً مطويّةً عدّة طَيَّات ، وفكّها ثنيةً ثنية حتى وصل أخيراً إلى ثماني لآلىء صغيرة كالبذور لا نفعَ لها ولا قيمة . وحملها الخادمُ ، لكنّه هذه المرّة لم يغب طويلاً ، بل عاد ليقول بأنّ الطّبيبَ قد خرج . فهو قد استدعيَ لأمرٍ هام وخطير ، ثم أغلق البابَ بسرعة مُتوارياً من الخجل .. والآن سرتْ موجةٌ من العار فوق رؤوس جميع أفراد الموكب . لقد ذابوا . وعاد المتسوّلون إلى درج الكنيسة ، وانفضّ المتطفّلون من حول عائلة الطّفل ، ورحل الجيران حتى لا يبقى عارُ كينو ماثلاً في عيونهم .

ووقف كينو وحيداً مع زوجته جوانا لفترةٍ طويلة ، طويلة جداً أمامَ الباب ، وهو يدقّ بقبضة يده دقّاتٍ عنيفة جعلتِ الدّماءَ تسيلُ من بين أصابعه .

* * * *

- ٢ -

هذه المدينة تقعُ على مصب نهر عريض ، وتحتضن بناياتُها الشامخةُ والمؤلّفةُ من مادّةِ الجبسِ الأصفرِ القديم الشّاطئَ الممتد . وعلى هذا الشّاطئ كانتْ هناك زوارقُ صغيرةٌ دأبَتِ الأجيالُ من صيّادي الأسماك على صُنعها بطريقةٍ سريّةٍ .

كان الشاطئُ عبارةً عن رمالٍ صفراء ، ولكنّه عند حدّ المياه كانتْ أحجارُ الصّدف والطّحلب تتكاثر . وفي أعماقِ البحر يوجدُ كثيرٌ من الأشياء المفيدة . وكانتِ الكلابُ والخنازيرُ الجائعة تبحثُ دائماً وبلا توقّفٍ عن سمك أو طيور بحرٍ ميّتة على طول الشاطئ .. وكانتْ بيوتُ القشّ للصيّادين تقع خلفَ هذا الشاطئ على الجانب الأيمن لهذه المدينة ، وزوارقهمُ الصّغيرةُ تتواجدُ في هذه المنطقة .

نزل كينو وجوانا إلى الشّاطئ حيث زورق كينو ، وهو الشّيء الوحيد الذي له قيمة يمتلكُها في هذا العالم . كان زورقاً قديماً وَرِثَهُ عن أبيه الذي هو أيضاً وَرِثَهُ عن والده . كان المتاعَ ومصدرَ الطّعام ، والرّجلُ الذي كان يملك قارباً في استطاعتِهِ الحصولُ على امرأةٍ يُقدّمُ لها طعاماً . إنّهُ ضمانةٌ ضد الجوع . وكان كينو يجدّدُ هذا القارب بالطّريقة السريّة التي توارثها عن والده .

والآن جاء كينو إلى الزّورق ووضع فيه كلَّ ما يحتاجه لعمليّة الغطس والصّيد . وطوى حرامَه ووضعه في القارب . وجاءتْ جوانا ومدّدتْ طفلَها كويوتيتو على الحِرام ، ثمّ غطّتْهُ بشالها لتُبعدَ عنه وَهَجَ الشّمس . كان ساكناً الآن غيرَ أنّ الورمَ الذي كان على كتفه امتدّ حتى عُنقه وتحتَ أُذُنه وقدِ انتفخَ وجهُه وظهرتْ عليه الحمّى . فذهبتْ جوانا إلى مياه البحر وأحضرتْ عُشباً بحريّاً جعلتْ منه ضماداتٍ وضعتْها على كتف الطّفل قد تكون بمثابةِ علاجٍ مثلَ علاجِ الطّبيب ، بل وربّما أفضلَ منه ، ولكنّه كان يحتاجُ إلى سلطته القانونيّة لأنّ هذا الدّواء

كان بسيطاً وبلا ثمن. ولعلّ جوانا قد أخرجتِ السمَّ عندما امتصّتهُ بفمها في وقتٍ ما، ولكنّها لم تمتصّ قلقَها على وليدها الأوّل. لم تضرعْ إلى الله كي يشفي طفلَها بل توسّلتْ إليه كي تعثرَ على لؤلؤة تستأجر بثمنها طبيباً يشفي طفلَها.

وأَنزل كينو القاربَ إلى مياه البحر. وبمساعدة جوانا بالتّجذيف سار الزّورقُ على سطح الماء مُتّجهاً إلى عرض البحر، ووصلا إلى مكانٍ منه يكثر في عُمقه وجود الصّدف. هذا الصّدف الذي كان يوماً سبباً في إنهاضِ ملك إسبانيا وجعله يتمتّع بسلطة قويّةٍ في أوروبا، ومكّنه من تحمّل نفقات الحروب، وزينّ به الكنائس.. ولعدّة قُرون كان الرجّالُ يغوصون في أعماق البحر وينتزعون المَحارَ من مكانِ وجودها ويفتحونَها ثم يفتّشون فيها عن حُبيْبَاتٍ بين الرّمال. وكان العثورُ على لآلئَ يأتي بالصُّدفة، ومجرّدُ العثورِ على لؤلؤةٍ واحدةٍ كان يعني الثّروةَ والحظ.. وكان لدى كينو حَبْليْن، أحدهُما مربوطٌ بحجرٍ ثقيلٍ والآخرُ مربوطٌ

بالسلّة. وخلع كينو قميصَه وبنطالَه ووضع قبّعته في قعر الزّورق. وحمل الحجر في يدٍ واحدة وسلّتهُ في اليد الأخرى، وقاده الحجرُ إلى القاع.. وتحرّك بحذرٍ وهدوء حتى لا يعكرَ الماءَ بالوحل أو الرّمال. وضع قَدَمَه على الحجر، فيما بدأتْ يداهُ تعملُ بسرعةٍ في البحث عن المَحار.. وقد جمعَ منه العديدَ ووضعَهُ في السلّة..

كان مُواطنو كينو قد أنشدوا كلَّ شيء حَدَثَ أو وُجد. لقد نظموا أُغنياتٍ للأسماك، للبحر ساعةَ هياجه وللبحر ساعةَ هدوئه، للنّور وللظّلام وللشّمس وللقمر. والآن عندما ملأ كينو سلّتَه كانتِ الأُغنيةُ له في هذا الحدث. وهو حدثٌ يخفي سرّاً عظيماً. لقد كانتْ هذه الأُغنية هي أغنيةَ اللّؤلؤة التي يُقدّرُ في أنّها ستكون بين مجموعة الصّدف التي حملها معه. وقد تكون كلُّ صدفةٍ ألقى بها في السلّة تحتوي على لؤلؤة..

وعرف كينو أنّ جوانا التي كانت معه في الزّورق

كانتْ تتلو تعويذتَها السّحريّة ، مُحاولةً انتزاعَ الحَظ من أيدي الذين كانتْ تتوسّلُ بهم من آلهة السّحر ، وهي ترجو أنْ تُصيبَ هذا الحظّ من أجل كتف كويوتيتو المُتورِّم . ولأنّ الحاجةَ كانتْ كبيرة .. والرّغبةَ كانتْ كبيرة ، فإنّ نغمةَ اللّؤلؤة كانت أقوى وأكبر في هذا الصّباح .

كينو بكبريائه وشبابه وقوّته استطاع أنْ يصمدَ أكثر من دقيقتيْن تحت الماء ، وأنْ يحصلَ على أكبر صدف المحار . وما لفتَ نظرَه وجودُ صدفةِ محار كبيرة كانت منفصلةً عن أخواتها ؛ وقد بدأ قلبهُ يدقُّ ويعزفُ لحنَ اللّؤلؤة .

أزلج كينو سكّينة داخلَ الصَّدفة وبدأ يتحسّس بها وجودَ ما يبحث عنه .. وشعر من خلال السكين بعضلةٍ مُحكمة الرّبط بالصَّدفة ، فأعمل سكّينه بحكمة وحذر لِفكِّها حتى كان له ما أراد . وسقطتْ قطعةٌ شبيهةٌ بشفة إنسان ؛ واستقرّتْ على الأرض لؤلؤةٌ عظيمةٌ كالبدر المُنير . كانتْ كبيرةً كبيضةِ حيوانٍ بحري . كانتْ أعظمَ لؤلؤةٍ في العالم .

جوانا حبستْ أنفاسَها وتأوّهتْ قليلاً . أمّا بالنّسبة لكينو فقد أسفر هذا اللّحنُ السريُّ لإمكانيّة وجود لؤلؤة عن حقيقة تفجرّتْ وضوحاً وجمالاً ونصراً أكيداً . فقد رأى على وجه اللّؤلؤة أطيافَ آمالِه وأحلامِه . فالتقطها ووضعها على راحة يده وأخذ يُقلّبها ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال ، فتأكّد له كمالَها .. واقتربتْ جوانا منه لِتُحملقَ بها وهي على يده ؛ وهي اليدُ التي انسحقتْ وهي تدقّ على باب الطّبيب .

وبغريزة الأمّ ذهبتْ جوانا إلى كويوتيتو حيث يركدُ على بطّانيّة والده ، وأزاحتْ عن كتفهِ لبخةَ العشبِ البحري ، وأطلقتْ صرخةً حادّةً : « كينو . »

نظر إليه ، فرأى أنّ الورمَ كان يتلاشى من على كتف الطّفل ، والسمُّ يتقهقرُ من جسده . فأغلقَ قبضتَه على الجوهرة ، وقد تفجّرَتْ عواطفُه ، وألقى برأسه إلى الوراء وصار يُطلق عواءً كالذّئاب ، فسمع الرّجالُ الآخرون الذين كانوا في زوارقهم ، فأجفلوا ، وأسرعوا نحو زورق كينو .

ـ ٣ ـ

إنّ المدينةَ هي شيءٌ شبيهٌ بالجسد البَشَـرِيِّ .. فللمدينةِ جهازٌ عصبيٌّ ورأسٌ وأكتافٌ وأقدام. وكلُّ مدينةٍ تختلفُ عن المدن الأُخرى ، بحيثُ لا توجد مدينتان مُتشابهتان .. وللمدينة عاطفةٌ كليّةٌ تسودُ الجميع .. وكيف تنتقلُ الأخبارُ في المدينة هو أمرٌ غامض لا يمكنُ حلُّه بسهولة .. ويبدو أنّ الأخبارَ فيها تتحرّكُ بسرعةٍ أكثرَ من تدافُعِ الأولاد لإخبارها ، وأسرعَ من حديث النسّاء بها عند روايتها قُربَ السِّياجات ...

وقبلَ أنْ يصلَ كينو وجوانا والصيّادون الآخرون إلى منزل كينو القش ، كانتْ أعصابُ المدينة تتدافعُ وتهتزُّ بالـنّبأِ العظيم ـ كينو قد وجد لؤلؤةَ العالم .

وقبْلَ أنْ ينقلَ الأولادُ الصّغارُ هذه الكلمات ، عرفتْ أُمّهاتُهم بالخبر .. وتجاوز الخبرُ بيوتَ القش ، وسرى كموجةٍ مُزبدة إلى داخل مدينة الحجارة والجبس .

وصل الخبرُ إلى الكاهن وهو يتنزّه في حديقته ، فرسمَ في عينيه نظرةً مُتأمّلة لإصلاحات ضروريّةٍ للكنيسة . وتساءل في نفسه كم تُساوي هذه الجوهرة . كما أخذ يتساءلُ عمّا إذا كان قد عمّدَ طفلَ كينو ، أو عقدَ قرانه .. ووصل الخبر إلى أصحاب المحلّات ، فتأملوا ثيابَ الرجال التي لم تُبعْ .

ووصلَ النّبأ إلى الطّبيب الذي كان يجلسُ مع امرأةٍ أصبح مرضُها عمراً ؛ رُغم أنّها لا هي ولا زوجَها كانا يعترفان بذلك . وعندما توضّح الأمرُ للطّبيب مَنْ كان كينو ، قال : « إنّني أُعالجُ طفلَه من لسعة عقرب ، إنّه أحدُ زبائني . » ثمّ أطلق العنانَ لأفكاره مُستعيداً ذكريات باريس ..

وجاء الخبرُ سريعاً إلى المتسوّلين الواقفين أمامَ الكنيسة ، فأدخلَ السّرورَ على قلوبهم ، لأنّهم كانوا يعلمون بأنّه لا أجودَ من عطاء فقيرٍ أصابهُ الحظُّ فجأةً .

كينو قد عثَر على لؤلؤة العالم .. وفي المدينة ، وفي المكاتب الصّغيرة ، جلس الرّجال الذين كانوا يشترون

الجواهر من الصّيادين ... كانوا ينتظرون وهم جالسون على كراسيهم حتى تأتي إليهم الجواهر ، وعندها يُحاورون ويُقاتلون ويَصرخون ويُهدّدون حتى يصلوا إلى أبخس الأثمان التي يرضى بها الصّيادون .. وسمع هؤلاء بالنّبأ ، فهالَهُم ، وبدأوا بالإنتظار عبرَ رَجُلٍ يسيطرُ ويتحكّمُ في هذا السّوق ..

وكَبُرَ اهتمامُ النّاسِ جميعاً بأمرِ كينو ـ بعضُهم ليبيعَ ما لديه ، وبعضُهم الآخر للحصول على مُساعدة . واختلط جوهرُ اللّؤلؤة بجوهر الرّجال ، وأصبحَ كلّ إنسان في هذه المنطقة على علاقةٍ بلؤلؤة كينو ، وقد دخلتْ هذه اللّؤلؤة في إطار أحلامهم وتأمّلاتهم ومشاريعهم ومستقبلهم .. والشخصُ الوحيدُ الذي يعترضُ سبيلَهم في تحقيق ذلك هو كينو نفسه ؛ فلقد أصبح كينو عدوّ كلّ إنسانٍ في المدينة . لقد كان لهذا النّبأ وَقْعُه الاسودُ والشرّيرُ في المدينة .. كان كالعقرب ، أو كالجوع أمامَ رائحةِ الطّعام ، أو كالوِحْدة والإنطواء عندما يسقطُ الحب .. وبدأتْ قِرابُ السمِّ تصنعُ الحقدَ والضّغينةَ في المدينة .

لكنّ كينو وجوانا لم يكونا يعلمان بما يجري .. فهما سعيدان ومُثاران بالحدث ، حتى أنّهما اعتقدا أنّ كلّ إنسان هنا كان يُشاركهُما الفرحة .. جوان توماس وأَبُولُونيا فَعَلاَ ذلك حقّا ، وهما كانا يُمثّلان العالَمَ أيضاً .

وبعد ظهر ذلك اليوم ، وعندما غابتِ الشّمسُ فوقَ جبالِ بِنْسولّا هابطةً وراءَ البحرِ البعيد ، قرفص كينو في منزله القش إلى جانب زوجته ؛ وكان البيتُ يغصّ بالجيران . وحملَ كينو اللّؤلؤةَ الكبيرةَ في يده ، وكانتْ تبدو دافئةً وحيّةً وهيَ في يده .

واندمجتْ موسيقى اللّؤلؤة مع موسيقى العائلة ، وكان كُلُّ لحن يُجمّلُ اللّحنَ الآخر .. وكان الجيرانُ ينظرون إلى اللّؤلؤة وهي في يده ويتساءلون في أنفسهم عن مثل هذا الحظّ الذي يهبطُ على الإنسان فجأةً ، وسأل جوان توماس أخاه قائلاً : « ماذا ستفعلُ الآن بعد أنْ أصبحتَ رجلاً ثريّاً ؟ » .

نظر كينو إلى لُؤْلؤته ، وأخفضتْ جوانا بصرَها حتى لا يُشاهدَ أحدٌ انفعالَها .. وبدأ شريطُ الذّكرياتِ يمرّ

في خاطر كينو وهو يرى بعضَ الأشياءِ في الماضي كيف كانتْ مستحيلةَ التّحقيق .. ولقد رأى في اللّؤلؤة جوانا وكويوتيتو ونفسَه وهم يقفون ويركضون أمامَ المذبح العالي ويشهدون مراسمَ الزّواج الذي باستطاعتهم الآن أنْ يدفعوا تكاليفه وقال بصوتٍ ناعم : « سنتزوّجُ في الكنيسة . » .

وفي اللّؤلؤة رأى كيف كانوا يرتدون ثياباً جديدة ـ جوانا في شالٍ وتنورة وحذاء جُدد ـ وهو نفسُه يرتدي ملابسَ بيضاءَ جديدة ، ويضعُ على رأسه قُبعةً جديدة غير مصنوعة من القش ، بل من اللبّاد الأسود الجيّد ـ وينتعلُ أيضاً حذاءً ـ وليس صندلاً قديماً ـ أمّا كويوتيتو فهو الوحيد الذي كان يرتدي بذلةً بحريّةً من الولايات المتّحدة وطاقيّةَ يختٍ تماماً كما رآها مرّةً عندما حطّ قاربٌ سعيد عند مصبّ النّهر .. كلّ هذا رآه كينو في اللّؤلؤة البرّاقة ، وقال : « سيكون لنا ملابسُ جديدة . »

وعلى وجه اللّؤلؤة الجميل رأى كينو أشياءَ صغيرةً كان يحتاجُها : صنّارةً تحلُّ محلّ الصنّارةِ التي فقدها

منذ عام ، صنّارةً من حديد وفي طرفها حلقةُ عند المقبضَ ؛ وبندقية . ولِمَ لا يكون لديه بنْدقيَّة وهو غنيّ ؟.. وها هو كينو يرى كينو في اللّؤلؤة ، كينو وهو يحملُ سلاحَ وِنْشِسْتَرْ . لقد كان هذا اليوم يوماً مُفعماً بالأحلامِ والسعادة .

كان الجيرانُ يجلسونَ صامتين وهم يُراقبون تصوّراتِ وأحلامَ كينو ، وعندما لفظَ كلمةَ البندقيّة ، تمتمَ أحدُ الحاضرين : « بندقيّة . إنّه سيمتلكُ بندقيّة . » لكنّ لحنَ اللّؤلؤةِ كان يجلجلُ مُدوّياً في نفس كينو .

ونظرتْ جوانا إلى زوجها مُعجبةً بشجاعته وتصوّراته ، وقد سرتْ في أنحاء جسده قوّةٌ كهربائيّةٌ تخطّى بها كلَّ الآفاق .. في اللّؤلؤة رأى كويوتيتو جالساً على مِقعد صغيرٍ في مدرسة ، تماماً كما رأى هذا المشهدَ يوماً من خلال بابٍ مفتوح .. كان كويوتيتو يلبس معطفاً ، ويضعُ ياقةً بيضاءَ وربطةَ عُنقٍ حريريّة . وبالإضافةِ إلى ذلك ، فقد كان كويوتيتو يكتُب على قطعةٍ من

الورق كبيرة .. نظر كينو إلى جيرانه بعنف ، وقال : « إنّ ولدي سيذهب إلى المدرسة . »

وصمتَ الجيرانُ ، وأمسكَتْ جوانا نَفَسَها بحدّة .. كانتْ عيناها تلمعان وهي تُراقب زوجَها ، ونظرتْ إلى كويوتيتو وهو بين ذراعيْها لترى إنْ كان هذا الأمرُ مُمكناً .. غير أنّ وجهَ كينو شعَّ بالنُّبوءة . « إنّ ولدي سيقرأُ ويفتحُ الكتبَ ، وسيكتبُ ويعرفُ الكتابة .. إنّ ولدي سيضعُ أرقاماً ، وهذه الأشياء ستجعلُنا أحراراً لأنّه سيتعلّم ـ فهو سيتعلّم ، ونحن من خلاله سنتعلّم . » ..

لم يتحدّثْ كينو في حياته مثلما تحدّث اليوم .. وفجأةً شعر بالخوف من هذا الكلام ، فأطبق كفَّه على اللّؤلؤة حاجباً عنها الضّوء .. كان كينو خائفاً كخوفِ رجلٍ يقول : « أنا سوف » ، دون علمٍ أو معرفة .

والآن عرفَ الجيرانُ بأنّهم كانوا شهوداً لحدث عظيم . وعرفوا بأنّ الزّمن سيبدأُ تاريخاً منذ لؤلؤة كينو ، وبأنّهم سيتحدّثون عن هذه اللّحظة لعدّة سنواتٍ

قادمة .. وإذا حصلتْ هذه الأشياء ، فسوفَ يُعدّدون كيف بدا كينو وماذا قال وكيف شعّتْ عيناه ، وسيقولون : « كان رجلاً تغيَّرَ مظهرهُ . لقد مُنِحَ سلطةً ما ، ومن هنا كانتِ البداية . وسترون كم عظيماً أصبح هذا الرّجل ، مُنطلقاً منذُ تلك اللّحظة . وأنا بنفسي شهدتُ تلك اللّحظة . »

أمّا إذا أخفقتْ خطّة كينو ، فسيقول بعضُ هؤلاء الجيران : « هكذا كانتِ البداية : لقد مَسَّهُ جنونٌ ما حتى بدأ يهذي ويتفوّه بكلماتٍ غبيّة حمقاء . فَلْيحفظنا اللهُ من مثل هذا . أجل ، لقد عاقب اللهُ كينو لأنّه تمرّد على الواقع . إنّكم ترون ما حلّ به . وأنا بنفسي شهدتُ اللّحظةَ التي فَقَدَ عقلَه بها . »

ونظر كينو إلى يده المُغلقة والمقرّحة من جرّاء ضَرَباتها على الباب . وأَقْبلَ الغسقُ ، فوضعتْ جوانا شالَها تحت الطّفل الذي تعلّق بوركْها ، واتّجهتْ نحو المدفأة لِتُشعلَ النّار . وتراقص لَهَبُ النّارِ المستعرَةِ على وجوه الجيران الذين أدركوا أنّ الوقتَ قد حان لذهابهم إلى العشاء ، ولكنّهم أحْجموا عن ذلك .

وحلّ الظّلامُ تقريباً ، وكانتْ نيرانُ جوانا تُلْقي
ظلالاً على جُدران القش عندما صدرتْ همسةٌ انتقلتْ
من فمٍ لأخر : « الأبُ قادمٌ ــ الكاهنُ قادم . » ..

وخلع الرّجال ما يضعونَهُ على رؤوسهم وتراجعوا
من أمام الباب ، ولفّتِ النّساءُ وجوهَهنّ بالشّالات
وغضَضْنَ أبصارهُنَّ إلى الأسفل .. نهض كينو وشقيقُه
جوان توماس . ودخل القسّيس ، رجلٌ مُسنٌّ أشيبُ
ذو جسمٍ نحيل وعينٍ حادّة .. كان ينظر إلى هؤلاء
الناس على أنّهم أطفال ، وكان يُعاملُهم كالأطفال ..
وخَاطبَ كينو بصوتٍ ناعمٍ رقيق : « مباركٌ أنتَ
مـن ربِّ الكنيسة أيها الرّجلُ العظيم . سَميُّكَ روّضَ
الصّحراء وأغنى عُقولَ مواطنيك بكلّ ما هو عذبٌ وجميلٌ ،
أَفلا تعلمُ ذلك ؟ . إنّهُ مُدوّنٌ في الأسفار . » .

وبسرعة نظر كينو إلى رأس كويوتيتو ، وقال في
نفسه ، سيعلَمُ هذا الطّفل يوماً ما ما هو موجودٌ في الكتب
وما هو غيرُ موجود .. وعاد الكاهن يحدّثُ من جديد :
« لقد نُميَ إليّ بأنّكَ عثرتَ على ثروةٍ عظيمة ، لؤلؤة

عظيمة . » .. وفتح كينو يدَهِ وأظهرَ اللّؤلؤة ، فنظر
الكاهنُ إليها مبهوراً بحجمها وجمالها ، ثم قال : « آملُ
أنْ تشكرَ نعمةَ الله عليك ، يا بني ، أنْ تَشكرَهُ على مَنحِكَ
هذا الكنز ، وأنْ تدعوَهُ ليسدّدَ خُطاك في المستقبل » .

أومأ كينو رأسَه بصمت ، وكانتْ هيَ جوانا
التي تكلّمتْ بصوتٍ منخفض قائلة : « سنفعل ، يا أبانا .
وسنعقدُ قِرانَنا الآنَ . كينو قد قال هذا » . ونظرتْ
إلى الجيران لِيُؤَكدوا كلامها ، فأَوْمأوا برؤوسهم .

قال الكاهن : « إنّه لمن دواعي السرور أنْ تكون
أُولى أفكاركم أفكاراً طيّبة . فليُباركْكمُ اللهُ ، يا أطفالي . »
ثم استدار وغادر المكانَ بهدوء .

بعد ذلك انصرف الجيرانُ إلى بيوتهم .. وجلستْ
جوانا قُربَ الموقد ووضعتْ قِدْرَ الحبوبِ المغليّةِ على
نارٍ خفيفة .. ووقف كينو على عتبة الباب وأخذ ينظرُ
إلى الآفاقِ البعيدة .

وفيما هو واقفٌ عند الباب رأى رجلين يقتربان ؛
وكان أحدُهما يحملُ مصباحاً أضاء المكان وكشف سيقان

الرّجلَين . دخل الرّجلان من خلال فتْحة في سياج كينو وجاءا إلى منزله .. وتبيّن لكينو أنَّ أحدَهما هو الطّبيب والآخر هو الخادم الذي فتح له البابَ في الصّباح .. وشعر بقروح يده اليُمنى تلتهبُ وهو يرى مَنْ هما هذين الرّجلَين .

قال الطّبيب : « لم أكُنْ داخلَ المنزل عندما جئتَ إليّ هذا الصّباح . ولكنّني الآن ، وفي أوّل فرصة ، قد حضرتُ لأرى الطّفل . » ..

وقف كينو أمامَ الباب يملؤه ويسدّه ، والغضبُ الحاقدُ يبدو في عينيْه ، وكذلك الخوف ، لأنّ مئات من سنين القهر والإستعباد قد تعمّقتْ في داخله .

ـ « إنّ الطّفلَ هو على ما يُرام الآن . » قال كينو بفظاظة .

ابتسم الطّبيبُ وقال : « أحياناً ، يا صديقي ، يكون للسعة العقرب تأثير عجيب . قد يطرأ تحسّنٌ ظاهر ، ومن ثمّ وبدون إنذار ـ بوف ! » قال هذا وقد ذمّ

شفتيْه ليُحدثَ انفجاراً صغيراً يُظهر به كم يكون الأمرُ سريعاً ، ثم فتح حقيبتَه الطبيّة وأخرج منها العدّةَ التي كان يعرف كم كان جنس كينو يُحبّها ويثقُ بها .. « أحياناً » ، تابع الطّبيبُ كلامَه بنغمة مائعة ، « أحياناً ينتج عن هذه اللّسعة ذبولٌ في السّاق أو عمىً في العين أو تجعّدٌ في الظّهر . آه ، إنّني أعرفُ لسعةَ العقرب ، يا صديقي ، وأستطيعُ مُعالجتها وشفاءها . » .

وشعر كينو أنّ الغضبَ والكراهيَة يذوبان أمامَ الخوف . أيستطيع أنْ يُجازفَ بجهله أمامَ إمكانات الرّجل العلميّة . لقد وقع بالفخ تماماً كما كان مواطنوه يقعون بالفخّ دائماً . إنّه لن يُجازفَ بحياة كويوتيتو . فتنحّى جانباً وأفسحَ طريقاً للطّبيب كي يدخلَ هو وخادمُه إلى كوخ القش .

وعندما دخل الطّبيبُ نهضتْ جوانا من قرب الموقد وتراجعتْ قليلاً إلى الوراء ، ثم غطّتْ بشالها وجهَ الطّفل . وعندما تقدّم الطّبيبُ منها وبسط يدَه نحو الطّفل ، شدّتْ

على طفلها ونظرتْ إلى كينو الذي أومأ لها برأسه ، وعندئذ سمحتْ للطّبيب أنْ يأخذَ الطّفلَ منها .

فحص الطّبيبُ الطّفلَ ، ثم قال : « إنّه كما أعتقد بأنّ السمَّ قد تسلّل إلى أنحاء جسده وسيضربُ ضربتَه سريعاً . أُنظرا – إنّه أزرق . » ونظر كينو بقلق ، ورأى أنّه فعلاً أزرق . وهو لم يعرف إذا ما كان أزرقَ قبل ذلك . لقد نُصب الفخُّ . وهو لن يُجازف .

نظر الطّبيبُ إليهم وقال : « سأُعطيه شيئاً يطرحُ السمَّ جانباً . وناولَ الطّفلَ إلى كينو .. ومن حقيبته أخرجَ زجاجةً صغيرةً من مسحوقٍ أبيض وكبسولةً من الجيلاتين . ملأ الكبسولة بالمسحوق ثم أغلقها ، ووضع حولَ الكبسولةِ الأولى كبسولةً أُخرى وأغلقها . أخذ الطّفلَ بين يديه ووضع له الكبسولةَ في فمه ، وبطريقةٍ لا تجعلُه يبصُقُها ، ثم سقاه شرابَ البوْلكيوُ ، وانقضى الأمر .. بعد ذلك ناولَ الطّفلَ إلى جوانا ، والتفت نحو كينو وقال : « أعتقد أنّ السمَّ سيُهاجمُ في غضون ساعة . هذا الدوّاء قد يحمي الطّفلَ من الأذى ، ولكنّني سأعودُ

بعد ساعة . لعلّي قد وصلتُ في الوقت المناسب لإنقاذه . » .. أخذ نَفَساً عميقاً وخرجَ من الكوخ يتبعُهُ خادمُه وهو يحملُ المصباح .

نظرتْ جوانا إلى طفلها بخوف وقلق ، وتقدّم كينو منها ورفع الشّالَ عن الطّفلَ وأخذ يُحدِّقُ به . وعندما حرّك يدَه لينظرَ تحت جفن الطّفل لاحظ أنّه ما زال مُمسكاً باللّؤلؤة في يده . اتّجه نحو صندوق قريب من الحائط ، وأخرج منه قطعةً بالية من الثّياب . لفّ اللّؤلؤةَ في هذه الخرقة ، ثم ذهب إلى زاوية المنزل وحفر حفرةً صغيرةً بإصابعه ، ووضع اللؤلؤةَ في الحفرة وغطّاها وأخفى المكان . بعد ذلك اتّجه نحو الموقد حيث كانتْ جوانا تجلس القرفصاء هناك تُراقب وجهَ الطّفل .

أمّا في بيوت الجيران ، فقد كان هذا الحدثُ العظيمُ هو محورُ كلّ الأحاديثِ .. كان كلُّ واحدٍ منهم يُري الآخر كم هي كبيرةٌ هذه اللّؤلؤة بإبهام يده ؛ وكانوا يُبدون إعجابهم بروعتها وجمالها . ومن الآن فصاعداً ، سيراقبون كينو وجوانا عن كثب ليروْا إذا ما كانتِ

الثّروة ستقلبُ رأْسيهما ، كما أدارتِ الثّروات عقولَ النّاس .. كلّ واحد منهم عرف لماذا جاء الطّبيب .. لم يُفلح في تصنّعُه ، وكان معروفاً جيداً لدى الجميع .

كان كينو يلفّ سيجارةً عندما خاطبتْهُ جوانا بحدّة : « كينو » . فنظر إليها واتّجه نحوها بسرعة وهو يرى الخوفَ في عينيْها . وقف عندها وأخذ ينظرُ إلى أسفل ، لكنّه لم يستطع أنْ يرى شيئاً لأنّ الضّوءَ كان خافتاً . فألقى بكومة من القصب في حفرة الموقد كي تبعثَ وَهجاً يُضيء المكان ، ويستطيع عندها رؤيةَ وجهِ كويوتيتو . كان وجهُ الطّفل محمرّاً وزلعومُه مُتواصلَ الحركة ، وَلُعابٌ لزجٌ على شفتيْه . لقد بدأ تقلّصُ عضلاتِ المعدة ، وكان الطّفلُ بحالةِ مرضٍ شديد .

وركع كينو إلى جانب زوجته ، وقال لها : « بمثل هذا أنْبأنا الطّبيب . » . وكان يُريد بهذه الكلمات أنْ يُطمئن نفسَه بقدر ما يُطمئن جوانا .. فقد كان عقلُه مُشتّتاً ومُرْتاباً ، وهو يتذكّر هذا المسحوقَ الأبيض .

أخذتْ جوانا تذهبُ وتجيء في البيت وهي تردّدُ ترنيمةَ العائلة التي كانتْ تردّدها دوماً عندما يلمّ الخطبُ بالعائلة ، فيما كان الطّفل يتقيّأ ويذوي بين ذراعيْها .

أنهى الطّبيبُ تناوُل قطع الشوكولاته والكعك ، ومَسحَ أصابعَه بمحرمة ورق ، ثم نظر إلى ساعته ، فنهض ، وحمل حقيبته الصّغيرة .

وانتقل نبأُ مرضِ الطّفل بسرعة وسط بيوت القش ، لأنّ المرضَ يأتي في المرتبة الثانية بعد الجوع كعدوٍّ من أعداء الفقراء .. وَتَدافع الجيرانُ إلى منزل كينو مرّةً ثانية .. وقفوا وحملقوا ، وأخذوا يُقدّمون تعليقاتٍ صغيرة على الحزن الذي يطرأ على الإنسان ساعةَ البهجة والسرور ، وقالوا : « إنّ كلّ الأمور هي في يد الله . »

وأسرعَ الطّبيبُ بالدّخول يتبعُهُ خادمُهُ . وأبعدَ النّساءَ كالفراخ . ثم فحص الطّفلَ وجسّ رأسَه ، وقال : « لقد بدأ السمُّ فعلَه . أعتقدُ بأنّني سأهزمه . سأعملُ ما في وسعي . » وطلب كوباً من الماء وضع فيه ثلاثَ نُقاط من الأمونيا ، وفتح فمَ الطّفلِ وصبّ فيه الجُرعة .

غمغم الطّفلُ وصرخ بعد تناوُلِه الدواء ، وكانتْ جوانا تُراقبُه بعينين يتطايرُ منهما الشرّ . وتكلّم الطّبيبُ في أثناء عمله وقال : « إنّه لمن حسن الحظ أنّني ملمٌّ بمعرفة سمّ العقرب ، وإلّا ـ » وهزّ كتفه ليُظهر ماذا كان سيحدُث لو أنّه لا يعرف .

لكنّ كينو كان مُرتاباً في الأمر ، ولم يستطع أنْ يبعدَ عينيْه عن حقيبة الطّبيب المفتوحة ، وعن قارورة المسحوق الأبيض الموجودة فيها .. وأخذتِ التّشنّجاتُ تهدأ تدريجيّاً واستراحَ الطّفلُ وهو في يد الطّبيب . وبعد ذلك سحبَ الطّفلُ نَفَساً عميقاً واستسلم للنّوم ، لأنّه كان تعباً جداً من جرّاء التقيُّأ .

وضع الطّبيبُ الطّفلَ في ذراعيْ جوانا ، وقال : « سيتحسّنُ الآن . لقد ربحتُ المعركة » . ورمقتْهُ جوانا بنظرةِ تعبّد .

وقال الطّبيبُ وهو يُغلقُ حقيبته : « متى ستدفعُ الحساب ؟ » وحتى هذا السّؤال قاله بلطفٍ ورقّة ..

ـ « سأدفع لكَ عندما تُباع اللّؤلؤة . » أجاب كينو.

ـ « أَتملكُ لؤلؤةً ؟ لؤلؤة جيّدة ؟ » سأل الطّبيبُ باهتمام ... وانفجر كورسُ الجيران : « لقد عثر على لؤلؤة العالم . إنّ كينو سيُصبحُ غنيّاً . إنّها لؤلؤةٌ لم تقعْ عينُ أحدٍ عليها من قبل . »

وبدا الطّبيبُ مُندهشاً وقال : « لم أسمعْ بها . أَتحتفظُ بهذه اللّؤلؤة في مكانٍ أمين؟ لعلّكَ راغبٌ في أنْ أحتفظَ لك بها في خزانتي الحديديّة ؟ »

قال كينو : « غداً سأبيعُها وبعد ذلك سأدفعُ لك . »

هزّ الطّبيبُ كتفَه ، وكانتْ عيناهُ معلّقتين على عينيْ كينو ، لأنّه عرف بأنّ اللّؤلؤةَ كانتْ مُخبّأةً في المنزل ، واعتقد بأنّ كينو سينظرُ في اتّجاه المكان حيث طمرها .

ـ « إنّه لمن العار أنْ تُسرقَ قبل أن تتمكّنَ من بيعها » ، قال الطّبيب هذا ، ورأى عيني كينو تتّجه بشكلٍ لا إرادي نحو الأرض قرب العامود الجانبي من المنزل .

وعندما غادر الطّبيبُ وعاد جميعُ الجيران إلى منازلهم ، جلس كينو قرب المدفأة وأخذ يُصغي لصوت اللّيل ، صوت الأمواج النّاعمة على الشاطىء

وإلى نباح الكلاب البعيدة ، وإلى تسلّل النّسيم عَبر سقف البيت - القش ، وإلى همسات جيرانه في بيوتهم في القرية . وبعد برهةٍ وجيزة نهض كينو واتّجه نحو باب منزله ..

استنشق النّسيم وأخذ يُصغي لأيّ صوتٍ غريب وعيناه تستقصيان الظلّام ، ذلك لأنّ موسيقى الشرّ كانتْ تدوّي في رأسه وكان خائفاً ومتوثّباً ... وبعد أنْ تفحصّ اللّيل بدقّة بأحاسيسه وشعوره ، اتّجه إلى المكان الذي دَفنَ فيه اللّؤلؤة ، فاخرجها وأحضرها إلى حصيرة نومِه حيث حفر حفرةً صغيرةً تحت مكان الحصير ودفنها هناك ثم غطّاها .. وكانت جوانا الجالسة قُرب النار تُراقبه بعينين مُتسائلتين . وعندما دفنَ لؤلؤته سألتْهُ قائلة : « مَنْ تخاف ؟ » بحث كينو عن جواب صحيح ، وقال أخيراً : « كلّ شخص . »

وبعد فترةٍ من الوقت نامَ الإثنان معاً على الحصير ، وقد احتضنتْ جوانا طفلَها بين ذراعيْها وغطّتْ وجهَه بشالها ، وانطفأتْ آخرُ شُعْلةٍ في المدفأة .. لكنّ رأسَ

كينو كان يشتعلُ بالأفكار حتى في نومه . لقد رأى سَيْلاً من الأحلام المتعلّقة به وبالعائلة ولا سيّما كويوتيتو ... وعندما وصلَ في أحلامه إلى معزوفة الشرّ اهتزّ جسدُه ، فأيقظ جوانا ، ثمّ استيقظ هو وأُذناه مُتنبّهان لِمَا يسمع . وفيما هُوَ قائمٌ في الظّلام مُتأثّراً بمعزوفة الشّر التي ما زالتْ تطنّ في أذنيْه ، انبعث صوتٌ ضعيفٌ جداً من زاوية المنزل حتى يكادُ يُحسبُ أنّه ظنٌّ وخيالٌ ، وكان عبارةً عن حركةٍ خفيفة ، دعسةُ قدمٍ على الأرض .

وحبس كينو أنفاسَه ليُصغي لهذا الصوّت ، مُدركاً كلّ ما من شأنه أنْ يكون في منزله في هذا الظّلام ، فهو حابسٌ أنفاسَهُ أيضاً ليصغي .. ولم يأتِ صوتٌ على الإطلاق من زاوية المنزل القش .

وكان كينو يحسبُ أنّه كان مُتوهّماً في سماعه لهذا الصوت ، غير أنّ يدَ جوانا جاءتْ تزحفُ إليه مُحذّرةً ، ومن ثمّ انبعث الصّوتُ مُجدّداً : همسةُ قدمٍ على تُراب جاف وخدشةُ أصابع في التّربة . وسيطر الخوف على كينو . وما لبث هذا الخوف إلّا أنْ تحوّل إلى غضب ،

فزحفتْ يدُ كينو إلى صدره حيث يُخفي سكّيناً ، ثمّ قفز كقطّةٍ غاضبة وأخذ يعملُ ضرباً في سكّينه كيفما شاء ضدّ هذا المجهول الذي اعتقد أنه يقف في زاوية المنزل . واخترقتْ مديتُه ستارةً من القماش أمسك بها وسط الظّلام ، شعر بعدها بضربةٍ خاطفة تشجّ رأسه . ثمّ كان هناك هروبٌ سريعٌ من عتبة الدّار ، خيّم بعده الهدوء ..

استطاع كينو أنْ يتحسّسَ الدّماءَ وهي تسيلُ على جبهته ، وسمع جوانا تُناديه : « كينو ! كينو ! » وفي صوتها رعبٌ وقلق. ، فأجابها بعدما هدأتْ ثائرتُه : « إنّي بخير . لقد ذهب الشيء . » .. وعاد إلى حصيرة نومه ، فيما ذهبت جوانا إلى الموقد وأحضرتْ بعضَ الرّماد لِذَرِّه على الجرح بعدما نظّفته بشالها المبلّل بالماء .. ثم قالتْ وهي تتميّزُ من الغيظ والغضب : « إنّ هذا الشّيءَ شرّ ، » وأضافتْ تصرخُ بصوتٍ فظ : « إنّ هذه اللّؤلؤة كالخطيئة ! إنّها ستقضي علينا . ألْقِ بها بعيداً يا كينو . فلْنَسْحقها وَلْندفنها في مكانٍ ما ننساه .

فَلْنُعِدْها للبحر . لقد جلبتْ لنا الشرّ . كينو ، يا زوجي ، إنّها ستُدمّرنا . » ..

قال كينو بإرادةٍ وتصميم : « إنّها فرصتُنا الوحيدة . ولدنا يجب أنْ يذهب إلى المدرسة . يجب أنْ يخرج من القمقم الذي وُضِعْنا فيه . » ..

وصاحتْ جوانا : « ستُدمّرنا جميعاً ، حتى ولدنا . » ..

قال كينو : « أصمتي . لا تتكلّمي بعد . في الصّباح سنبيعُ اللّؤلؤة ، وسيزولُ الشرُّ عنّا ، وسيبقى الخيرُ وحده . والآن أصمتي ، يا زوجتي . » .. ثم نظر إلى مديته التي كان ما يزال يُمسكُ بها في يده ، فرأى ولأوّل مرّة خطّاً من الدّماء على نصلها ، فأغمدها في التّراب ونظّفها .

بدأتِ الدّيوكُ تصيحُ من بعيد ، والفجر يقترب ، عندما قام كينو وأخرج اللّؤلؤةَ من الحفرة التي هي تحت حصيرة النّوم ، وأخذ يتأمّلُ جمالَها ، وقد انبعثَ منها لحنٌ عذبٌ ـ لحنُ الوعدِ والسّعادة ، وضمانةُ المستقبل . إنّها وعدٌ ضدّ المرض وجدارٌ ضدّ المهانة والذّل . إنّها

غَلَقٌ لباب الجوع . لقد استراح كينو لهذا الوعد وابتسم ..
ولأنّ القصدَ واحد .. والغاية واحدة ، ابتسمت جوانا
أيضاً . واستهلّا يومهما هذا بالأمل .

ـ ٤ ـ

في الصّباح الباكر كان معروفاً لدى الجميع في مدينة لاباز بأنّ كينو سيبيعُ لؤلؤتَه في ذلك اليوم .. الجيرانُ في أكواخهم القش ، صيّادو اللآلىء ، أصحابُ مخازن البقالة الصّينيّة ؛ عرفوا بهذا النّبأ ؛ وقد علمتْ به الكنيسةُ أيضاً ، وتسرّبَ النّبأ إلى الرّهبان والمتسوّلين الذين يقفون أمامَ الكنيسة والذين سيشهدون البيْع لِينَالوا حصّتهم من الثّمار الأولى للحظ .. كما أنّ معظمَ شاري اللآلئ علموا الخبر .

وعندما جاء اليوم ، جلس كلُّ رَجُلٍ في مكاتب شاري اللآلئ وحيداً في مكتبه مع صينيّته المخمليّة السّوداء ، وقد ملأ أطرافَ أصابعِ يده بالخواتم واضعاً نفسَه في الصّورة .

جرتِ العادةُ بين شاري اللآلئ أنْ يُزايدَ أحدُهم على الآخر عند شراء لؤلؤة من صيّادي اللآلئ. ولكنْ، وإزاءَ هذا الوضع الجديد لِلّؤلؤة الثّمينة، بدا هذا الأمرُ مضيعةً للوقت، سيّما وأنّ الثّمن سيكون مُرْتفعاً.. إذنْ لا حاجةَ للمواجهة والمزايدة. وقد كان هناك مُشترٍ وحيد لهذه اللآلئ له عدّة أذرع، والذين كانوا يجلسون في مكاتبهم عرفوا ما سيقدّمونه من ثمن، وكم ستكون المُزايدة بالغة، والأسلوبَ الذي سيتّبعُه كلّ منهم، ومع ذلك لن يُجازفوا برواتبهم التي يتقاضونها رُغم كلّ المُغريات في الرّبح. وأفضلُهم وأسعدُهم مَنْ يشتريها بأبخس الأثمان.

وفي صبيحة هذا اليوم اصطفّتِ الزّوارقُ على طول الشّواطىء؛ لأنّ الصيّادين لن يذهبوا ليغطسوا في البحر بحثاً عن اللآلئ، بل ليشهدوا الحدث العظيم في هذا اليوم. وجلس الجيرانُ طويلاً أمامَ موائدِ فطورهم يتحدّثون عمّا سيفعلونه إنْ هُمْ عثروا على لؤلؤة. وكلٌّ منهم يأمل في أنْ لا تُغيّرَ هذه الثّروةُ عقلَ كينو، أنْ لا تجعَل منه

غنيّاً، وأنْ لا تجلبَ عليه شرَّ الجشع والكراهية والبرودة.. فكينو كان رجلاً محبوباً من الجميع؛ ومن العار أنْ تدمّرهُ هذه اللّؤلؤة. وممّا قالوه أيضاً: «انّ جوانا زوجةٌ طيّبةٌ، وكذلك الطّفلُ كويوتيتو، ومَنْ سيأتي أيضاً في هذه العائلة. ويا للخسارة إذا ما قُدِّر لهذه اللّؤلؤة أنْ تُدمّرهُم جميعاً».

أمّا بالنّسبة إلى كينو وجوانا فقد كان هذا الصّباحُ هو صبحَ حياتهما، ولا يُمكن مُقارنته بأيّ شيءٍ سوى يومِ مولد طفلهما. وهو اليوم الذي سيُنظّمُ كلَّ أيّامهما القادمة.. ألبستْ جوانا كويوتيتو الملابسَ التي أعدّتْها لمعموديّته عندما يكون هناك مال لِتنصيره.. وسرّحتْ شعرَها ثم ربطتْ ضفائرَها بشرائطَ حمراء، ولبستْ تنّورةَ زواجها.. وكانتْ ملابسُ كينو البيضاء البالية نظيفةً على الأقل، وهو اليوم الأخير لِحزمِه البالية، لأنّه غداً، أو حتى بعد هذا الظّهر، سيمتلك ملابسَ جديدة.

وارتدى الجيرانُ ملابسَهم وكانوا جاهزين أيضاً

للّحظة التّاريخيّة. فهم مخبولون إنْ لم يذهبوا، كما أنّ عدمَ ذهابهم علامةٌ غيرُ وديّةٍ تجاه جيرانهم.

واستعدّ كينو وزوجتُه للإنطلاق، ومعهما كويوتيتو الذي أعدّتْ له أُمّه شباكاً تضعُه فيها. وخطا كينو بأَنَفةٍ وكبرياء خارج منزله، وتَبعتْهُ زوجتُه وهي تحملُ كويوتيتو. وانضمّ إليهم الجيران. وخلتِ المنازلُ من الجيران كباراً وصغاراً. وسار جوان توماس إلى جانب شقيقه كينو..

وحذّر توماس أخاه كينو قائلاً: «يجب أنْ تكون حريصاً حتى لا تَدَعَهُم يخدعونك.»

«وحريصٌ جداً.» قال كينو مُوافقاً.

ـ «إنّنا لا نعرفُ الأسعارَ التي تُدفع في أماكنَ أُخرى»، قال جوان توماس. «أنّى لنا أنْ نعرفَ السّعرَ العادلَ، إنْ لم نعرفْ كم يدفع شاري اللآلئ في مكانٍ آخر؟»

ـ «ذلك حقٌّ»، قال كينو، «ولكن أنّى لنا أنْ نعرفَ ذلك؟ فنحن هنا، ولسنا هناك».

وكانوا كلّما اقتربوا من المدينة، كان الحشدُ يزدادُ ويتعاظم وراءَهم. وتابع جوان حديثَه بعصبيّةٍ قائلاً: «قبل أنْ تُولدَ، يا كينو، فكّر الأقدمون بطريقةٍ تجعلهم يحصلون على مالٍ أكثر لِلآلئهم. وقد اعتمدوا طريقة الوكيل الذي يأخذ كلّ اللآلئ إلى العاصمة ويبيعها مقابل حصوله على حصّة من الربح».

وأومأ كينو رأسه قائلاً: «أعلمُ ذلك. إنّها كانتْ فكرةٌ سعيدة.».

ـ «وهكذا اعتمدوا رجلاً»، قال جوان توماس، وجمّعوا لديه اللآلئ، ثم أطلقوا يديْه ليتصرّف بها. وبعد ذلك لم يعُدْ يُسمعُ عنه شيء، وفُقدتِ اللآلئ. ثم اعتمدوا رجلاً آخر فعل مثلما فعل الأوّل. فعادوا إلى اعتماد الطّريقة القديمة».

ـ «أعلمُ ذلك»، قال كينو. «لقد سمعتُ والدَنا يُحدّثُ بهذا الأمر. كانتْ فكرةٌ جيّدة، ولكنّها ضدّ الدّين، وقد أوضح الكاهنُ لنا ذلك. إنّ خسارةَ لؤلؤة كان عقاباً يحلُّ على هؤلاء الذين حاولوا تركَ

محطّتهم . وقد أوضح الكاهنُ لنا بأنّ كلَّ رجلٍ وامرأةٍ كجنديٍّ أرسلَهُ الله لحراسة جزءٍ من قلعة العالم . »

ـ « لقد سمعتُه يُقدّمُ هذه الموعظة » ، قال جوان توماس . « إنّه يُلقيها كلَّ عام . »

وشارك في هذا الموكب عددٌ كبير من النّاس . انضمّ إليه متسوّلو الكنيسة ، وزبائنُ الصّالونات ، وأُغلقتِ المحلّات وخرجَ مَنْ فيها يُشاركُ في أهميّة هذا اليوم العظيم .. وكان نبأ اقترابِ الموكب يتقدّمُ الموكب .. وكان مُشترو اللّآلئ في مكاتبهم المجموعة في شارعٍ واحد ، ينتظرون بقلق ، وقد وضعوا أمامهم الأوراق للتّظاهر بالعمل ، وكان هناك رجلٌ بدينٌ بليدٌ يجلسُ في مكتبه منتظراً ، وكان بارعاً في إجادة كلّ أدوار الحزن والفرح . وقد سمع وقعَ أقدامٍ أمامَ مكتبه ، فأسرعتْ يدُه اليُمنى بالتّظاهر في العمل عندما لاح طيفُ كينو عند الباب . ودخل كينو . فقال له الرّجلُ البدين : « صباح الخير ، يا صديقي . بماذا عسايَ أنْ أخدمَك ؟ »

جال كينو ببصره في أنحاء الغرفة المُعتمة ، وقال : « لديّ لؤلؤة . » ووقف جوان توماس قُربه وشَخَرَ قليلاً عند هذا القول . وكان الجيرانُ يختلسون النّظر عند الباب ، فيما تسلّق صفٌّ من الأولاد الصّغار على قضبان النّافذة ونظروا من خلالها .

ـ « لديك لؤلؤة » ، قال العميل . « في بعض الأحيان يأتي رجلٌ إلينا بدزّينة منها . حسناً ، دَعْنا نرى لؤلؤتك . سنقدّرُ ثمنَها ونعطيك أفضل سعر . » .

وأخرج كينو اللّؤلؤة من خرقة الثّياب ودَحْرجها على الطّبق المخمليّ الأسود ، واتّجهت عيناه نحو وجه الشّاري .

ولكن لم تكُنْ هناك علامةٌ ما ، ولا حركة ، ولم يطرأ أيُّ تغيّرٍ على الوجه ، لكنّ اليدَ الخفيّة وراء المقعد ضلّتْ هذا السّبيل . فقد تعثّرتْ قطعةُ النّقود المعدنيّة التي كان يحملُها بها بين أصابعه وسقطتْ إلى حضنه .. فأمسك الشّاري اللّؤلؤة وأخذ يُقلّبها على المخمل الأسود ، ثمّ يُقرّبُها من عينيْه ويبرّمُها في الهواء ... حبس كينو أنفاسه ،

وفعلَ الجيرانُ كذلك ، وارتدّتِ الهمسةُ إلى الوراء وسط الجمهور الحاشد : « إنّه يفحصُها ـ لم يُعرض سعرٌ بعد ـ لم يتّفقوا على سعرٍ ما . » .

والآن أصبحتْ يدُ الشاري شخصيّةً ما . فقد دفعت هذه اليدُ باللّؤلؤة العظيمة إلى الطّبق ثانيةً مُنزلةً بها الإهانة ، وارتسمتْ على وجه الشّاري ابتسامةٌ حزينة ومزدرية . ثم قال : « آسفٌ ، يا صديقي . » ورفع كتفيْه قليلاً ليُبيّن أنّ سوءَ الحظ لم يكن خطأه .

ـ « إنّها لؤلؤةٌ قيّمةُ الثمن . » قال كينو . وأزاح الشّاري اللّؤلؤة بطرف إصبعه باحتقار ، وقال : « لقد سمعتَ بالذّهب الخادع . إنّ هذه اللّؤلؤةَ هي مثلُ هذا الذّهب الخادع . إنّها كبيرة جداً . مَنْ يشتريها ؟ لا سوقَ لمثل هذه الأشياء . »

بدتِ الحيرةُ والقلقُ على وجه كينو ، وصاح قائلاً : « إنّها لؤلؤة العالم . لم يسبقْ لأحدٍ أن رأى مثلَها . » ..

فأجابه العميل : « على العكس من ذلك ، إنّها كبيرةٌ ولا قيمة لها . وهي تصلحُ لمتحفٍ يضيفُها لمجموعةٍ

من أصداف البحر . أستطيع أنْ أدفعَ لك ، فَلْنقلْ ، ألف بيزه . » ..

فتجهّم وجهُ كينو ، وقال : « إنّها تساوي خمسين ألفاً . أنت تعلم هذا . إنّك تُريد خداعي . » .

وسمع العميلُ تذمّراً وسط الجمهور عندما سمعوا عرضَ سعره ، وشعر بهزّةٍ من الخوف تجتاح قلبه ، فقال : « لا تَلُمني . إنّني مجرّد مُخمّنٍ للسّعر . إذهب إلى المكاتب الأُخرى وأَرِ لؤلؤتك هذه ـ أو من الأفضل أنْ تدعهم يأتون هنا ، عندها سترى أنْ لا سوءَ نيّة في الأمر . يا غلام » ، صاح عالياً . وعندما جاء الخادمُ إليه قال له بأنْ يذهب إلى أصحاب المكاتب ويدعوهم للحضور .

وتهامسَ جيرانُ كينو مع بعضهم البعض . لقد كانوا خائفين من شيءٍ من هذا القبيل . فاللّؤلؤة كانت كبيرة ، ولكنْ كان لها لونٌ غريب . لقد كانوا مُرتابين بأمرها منذ البداية . ومع ذلك ، فإنّ ألف بيزوس لا يجب إلقاؤها بعيداً . وهي ثروةٌ بالمقارنة لرجلٍ لا يملك ثروة .

وعلى افتراض أنّ كينو أخذ ألف بيزة ، فهو بالأمس لم يكن يملك شيئاً .. لكنّ كينو ازداد تصلُّباً في موقفه بعدما شعر بوجود ذئابٍ حوله ، وسمع في أُذنيْه معزوفة الشرّ .

وأفسح الجمهورُ الطّريقَ لعملاء اللآلئ الثلاثة . وصمتوا حتى لا تفوتهم كلمة ، أو يُخفقوا في رُؤية إيماءة أو حركةٍ مُعبِّرة .. وكان كينو صامتاً ومُراقباً .. وشعر بضعفٍ مُفاجىء في ظهره ، لكنّه استعاد قوّته عندما نظر في عينيْ جوانا ثم إلى البعيد .. ولم ينظرِ العملاءُ إلى بعضهم ولا إلى اللّؤلؤة . فقال الرّجلُ الجالسُ وراءَ المقعد : « لقد وضعتُ ثمناً لهذه اللّؤلؤة . إنّ صاحبَها هنا يعتقد بأنّ هذا السّعرَ غيرُ عادل . إنّني أدعوكم لِفحصها وعرض ثمنٍ لها . لَاحِظْ ، » قال لكينو ، « لم أذكُرْ ما عرضتُ عليك . »

العميلُ الأوّل ، متظاهراً بأنه يرى اللّؤلؤة للمرّة الأولى ، التقطها ، ثم أخذ يُقلّبها بين أصابعه ، ثم أعادها بازدراء إلى الطّبق .

- « لا تُدخِلْني في موضوعها » ، قال بشكلٍ جاف ، وأضاف : « لن أُقَدِّمَ لها عَرْضاً على الإطلاق . فأنا لا أُريدها . إنّها ليستْ لؤلؤة - إنّها شيءٌ شواذ » .

وأخذ الثّاني اللّؤلؤة وفحصها بدقّة ، ثم قال ساخراً : « هناك لآلئُ مصنوعة من الطّين هي أفضلُ منها . أنا أدرى بمثل هذه الأشياء . إنّ هذه القطعةَ هي قطعةٌ طبشوريّة ناعمة ، وسوف تفقد لونَها وتذوي في غضون أشهرٍ قليلة . أُنظر - » . وقدّم عدسةً زجاجيّة لكينو ، وأراه كيف يستعملُها ، وكينو ، الذي لم يشهد في حياته قط وَجْه لؤلؤة مُجسّم تحت عدسة مُكبِّرة ، انصدم برؤية هذا الوجه العجيب للّؤلؤة .

أمّا الثّالث فقد أخذ اللّؤلؤة من يد كينو ، وقال : « إنّ أحدَ زبائني يحبّ مثلَ هذه الأشياء . إنّني أعرضُ خمسماية بيزة لها ، وقد أبيعُها لزبوني بستماية . » .

تقدّم كينو بسرعة واختطف اللّؤلؤة من يده ، ثم لفّها بجلد غزال وأدْخلَها في قميصه ... عندئذ قال الرّجلُ الجالس وراء المقعد : « إنّني أحمق ، أنا أعلمُ ذلك ،

لكنَّ عرضيَ الأوّل ما زال قائماً . ما زلتُ أعرض ألفاً . ماذا ستفعل ؟ » سأل ، عندما حجب كينو اللّؤلؤة عن البصر .

ـ « لقد خُدعتُ » ، صاح كينو بعنف . « إنّ لؤلؤتي ليستْ للبيع هنا . سأذهب ، ولربّما حتى إلى العاصمة . » .

ونظر الآن العملاء إلى بعضهم البعض . وعرفوا بأنّهم كانوا قاسين جداً في لُعبتهم ، وأنّهم يجبُ أن ينسّقوا فيما بينهم لتفادي الفشل ، فقال رجلُ المقعد بسرعة : « قد أرفعُ السّعرَ إلى خمس عشرة مئة . » ... لكنّ كينو شقّ طريقَه وسطَ الجمهور المحتشد . ولحقتْ به جوانا .

وفي المساء تحدّثَ الجيرانُ في الأمر . وأجمعوا في قولهم على أنّ اللّؤلؤة لا قيمةَ لها كما قال العملاء ، رُغم مظهرها الجميل . ولكنّهم افترضوا أيضاً بأن الأمرَ كان مُدبّراً بين العملاء . وفي حال صحّة هذا الافتراض ؛ فإنّهم يكونون قد تعرّضوا لأكبر عمليّةِ غشٍّ وخداعٍ

في حياتهم ... كما أنّ بعضهم رأى من وُجْهة نظره أنّه كان من الأفضل لكينو أنْ يأخذَ الألف وخمسماية بيزوس ، وهو مبلغٌ كبيرٌ لم يرَ مثلَه في حياته . وقد لا يجدُ مُشترٍ في العاصمة للؤلؤته هذه ... وقال آخرون ، إنّ كينو رجلٌ شجاع ، ورجلٌ عنيف ؛ إنّه على حق .

وفي منزله جلس كينو على حصيرة نومه مُتأمّلاً ، وذلك بعد أنْ دفن لؤلؤته تحت حجرٍ في حفرة الموقد .. لقد فَقَدَ عالَماً ولم يربحْ عالَماً آخر ، كان الخوفُ يُسيطر عليه . فهو لم يبتعدْ في حياته قط عن بيته .. كان خائفاً من الغرباء ومن الأماكن الغريبة .. كان مُرْتعباً من وحش الغربة الذي يُسمّونه العاصمة .. إنّها تقع بعيداً في البحار وعَبر الجبال ، أكثر من ألف ميل . لكنّ كينو قد فَقَدَ عالَمَهُ القديم ويجب أنْ يتسلّق عالماً جديداً . فأحلامُ مُستقبله كانتْ حقيقة ولا ينبغي تدميرُها أبداً ، وقال : « سأذهب » .

ودخل جوان توماس ، وجلس قُرب كينو ، وظلّ صامتاً لفترةٍ طويلة ، وقد كسر هذا الصّمتَ

سؤالُ كينو: « أيّ شيء آخر كان يجب أنْ أفعلَه؟ إنّهم غشّاشون. ».

وأومأ جوان توماس رأسَه بحزن. وكان هو الأخُ الأكبر، وقد نظر إليه كينو يطلبُ حِكْمتَه في ذلك. فقال له جوان: « يصعبُ عليّ أنْ أعرف. لقد خُدعْنا منذُ وِلَادتنا وسنظلّ حتى مماتنا. لقد تحدّيتَ كلَّ العالم عندما تحدّيتَ عملاء اللآلئ؛ إنّي خائفٌ عليك. ».

ـ « ماذا عساي أنْ أخشى سوى الجوع؟ » سأل كينو.

فهزّ جوان رأسَه ببطءٍ، وقال: « هذا ما يجب أنْ نخشاه جميعُنا.. وَلِنفْترِضْ أنّك على صواب، وَلِنفْترِضْ بأنّ لؤلؤتك قيّمةُ الثمن ـ أَوَ تعتقد بأنّ اللّعبةَ قد تنتهي عند هذا الحد؟ ».

ـ « ماذا تقصد؟ ».

ـ « لا أعلم »، قال جوان توماس، « لكنّني خائفٌ عليك؛ إنّها أرضٌ جديدةٌ تسيرُ عليها، وأنتَ لا تعرفُ الطّريق ».

ـ « سأذهب. سأذهبُ حالاً »، قال كينو.

ـ « أجل »، قال جوان توماس موافقاً. « هذا ما قد تفعله. لكنّني أتساءل عمَّا إذا كان الأمر مُختلفاً في العاصمة. فهنا، لديك أصدقاؤك وأنا، شقيقك. وهناك، لن تجدَ أحداً يقف بجانبك. ».

ـ « ماذا عساي أنْ أفعل؟ » صاح كينو. « هنا يبدو الأمر مُهيناً. إنّ ولدي يجب أنْ يأخذَ فرصتَه في الحياة. ولأجل هذا يضربون ضربتهم. إنّ أصدقائي سيحمونني ».

نهض جوان توماس، وقال: « إذهب برعاية الله. ».

وبعدما ذهب جوان توماس، جلس كينو على حصيرة نومه مُتأمّلاً ومتفكّراً. ولقد غلب عليه النّعاس وطغا اليأس. لقد سدَّتْ أمامَه كلُّ الطّرق. ودارتْ في أفكاره ذكرياتٌ قديمة. وكانت جوانا تُراقبُه بقلق وهي تعرفُ أنّ أفضل مُساعدة تُقدّمها له هي الصّمتُ والبقاءُ بقربه. وحملتْ كويوتيتو. بين ذراعيها وأخذتْ تُغنّي له أغنيةً تطردُ بها الشرَّ والأذى عن هذا البيت.

لم يتحرّك كينو ولم يطلب عشاءه . كانت عيناه
مُثقلتين بالنّعاس ، ولكنّه قاوم ذلك ، لأنّه كان يخشى
ظلام اللّيل . بل كان يخشى ما يُواجهه من تهديدات
وتحدّيات . لذا ، فقد دسّ يدَه داخل قميصه وتحسَّسَ
سكّينته ، ثم نهض وسار نحو عتبة الدّار .. ورغبتْ
جوانا في إيقافه ، ورفعتْ يدَها لتفعلَ ذلك ، وقد فتحت
فاها من الخوف . ونظر كينو إلى الظّلام الدّامس في
الخارج لفترةٍ طويلة ، ثم خطا خُطوتَه خارجَ الدّار ...

وسمعتْ جوانا صوتَ معركة أَعْقبها ضربة ، فتجمَّدَتْ
من الخوف للوهلة الأُولى ، لكنّها ما لبثتْ أنْ سحبتْ
شفتيْها من بين أسنانها مثل شَفَتَيْ قطّة ، ووضعتْ كويوتيتو
على الأرض، وحملتْ حجراً من مكان الموقد واندفعتْ
إلى الخارج .. وكان الأمرُ قد انتهى ... كينو مُمدّدٌ
على الأرض يُحاولُ النّهوض ، ولم يكن بقربه أحد ..
فأسقطتِ الحجر ، ووضعتْ ذراعيْها حول كينو
وساعدتْه على الوقوف على قدميْه وأسْندتْهُ حتى داخل
البيت .. كانتِ الدّماءُ تسيلُ من فروة رأسه ، وكان

هناك جرحٌ عميقٌ في خدّه من الأذن حتى الذّقن ..
وكان كينو نصف واعٍ ، يهزّ رأسَه من جانبٍ إلى آخر ،
وقميصُه مفتوحٌ ومُمزّق ، وقد نزعتْ عنهُ نصفُ ملابسه .
أجلستْهُ جوانا على الحصيرة ، وأخذتْ تمسحُ الدّماءَ
عن وجهه بتنّورتها . ثم جلبتْ له بعض شرابِ البولكيو ،
وكان ما يزال يهزّ رأسه في مُحاولةٍ منه لاستجلاء الظّلام .

ـ « مَنْ ؟ » سألتْ جوانا.

ـ « لا أعرف » ، قال كينو . « لم أرَ » .

وبعدما مَسحتْ جرحَ وجهه بالماء ، قالتْ له :
« كينو ، يا زوجي . هل تسمعُني ؟ »

ـ « إنّني أسمعك » ، قال بخبل وذهول .

ـ « كينو ، هذه اللّؤلؤة هي شرٌّ علينا . دَعْنا نُدمّرها
قبلَ أنْ تُدمّرنا . دَعْنا نسحقها بين حجرين . دَعْنا ـ
دَعْنا نُعيدها إلى البحر الذي هي منه ـ كينو ، إنّها شرٌّ
إنّها شرّ ! » .

وفي الوقت الذي كانتْ تُحدّثه فيه ، عاد لعينيه

النّور ، فاستجمع قواه وقال : « كلّا . سأُقاتلُ هذا الشّيء . سأنتصرُ عليه . سنأخذُ فرصتنا في الحياة . »
ثم ضربَ بقبضة يده على الحصيرة ، وتابع يقول : « لن يأخذَ أحدٌ ثروتَنا . » وعادتْ إليه نظرتُه الرّقيقة ، ورفع يدهُ بلطف إلى كتف جوانا وقال : « في الصّباح سنأخذُ زورقَنا ونذهب عَبر البحار والجبال إلى العاصمة ، أنتِ وأنا . لن نُخدع . إنّني رجل . » .

ـ « كينو » ، قالت بصوتٍ مبحوح ، « إنّني خائفة . يُمكن للرّجل أنْ يُقتل . دَعْنا نُلقي اللّؤلؤةَ إلى البحر . »

ـ « أصمتي » ، قال بعنف . « إنّني رجل . أصمتي . » وصمتتْ . عندئذ قال لها : « دعينا ننامُ قليلاً . سنبدأ رحلتَنا عند أوّل خيطٍ للنّور . أنتِ غير خائفة من الذّهاب معي ؟ » .

ـ « كلّا ، يا زوجي . » ..

فترفق بها ووضع يدَه على خدّها قائلاً : « دعينا ننامُ قليلاً . » .

ـ ٥ ـ

فتح كينو عينيْه في الظّلام ، لأنّه أحسّ بحركةٍ قريبة منه ، لكنّه لم يتحرّك .. وعيناه هي التي فقط أَخذتْ تبحثُ في الظّلام ، وقد ساعده ضوءُ القمر المنساب بين فتحاتِ المنزل القش ، فرأى جوانا تنهض نحو مكان الموقد ، ثمّ تتجّه نحو عتبة الدّار بعد أن وقفتْ فترةً قُربَ الصّندوق المعلّق الذي نام فيه كويوتيتو ، ثمّ تخرجُ من البيت ..

استولى الغضبُ على كينو ، فوقف على قدميه ولَحق بها بالهدوء الذي خرجتْ به ، واستطاع أنْ يسمعَ وقعَ أقدامها تتّجه نحو الشّاطىء .. فتَتَبّع أثرها ، وهو يتميّزُ من الغيظ والغضب .

أسرعتِ الخطى نحو الماء ، وسمعتْه يسيرُ وراءها ، فانطلقتْ تعدو. كان ذراعُها مرفوعاً وعلى وشك أنْ

يقذفَ عندما انقضّ عليها وأمسك بذراعها واختطف اللّؤلؤة منها . وضربَها بقبضةِ يده على وجهها فسقطتْ بين الصّخور ، وَرَكلَها على جنبها ، ثم أخذ ينظرُ إليها وينفخُ كالأفعى .

ورمقته جوانا بنظرةٍ من عينيْن واسعتيْن غير خائفتين ، مثل شاةٍ أمامَ جزّار .. رأتِ فيه الجريمة ، ولا بأس في ذلك : فلقدِ ارتضتْ لنفسَها هذا المصير ولن تُقاومَ أو حتى تحتجَّ ..

وسرعان ما زال غضبُ كينو وحل محلّه القرفُ والاشمئزاز .. فابتعد عنها وسار على الشّاطىء وعَبَرَ خطّ القش . وكان إحساسُه بليداً بسبب انفعاله .. وسمع صوتَ شخصٍ يندفعُ نحوه ، فأخرج سكّينَه وضربَ بها الخيالَ المظلم وشعر بأنّ مديتَه قد أصابتِ الغرض ، ولكنّه دُفع فوقع على ركبتيه ،ثم دُفع مرّةً أُخرى فهوى على الأرض . واخترقتْ أصابعُ نهمةٌ ملابسه ، وأصابعُ مهووسة أخذتْ تُفتّشه ، وسقطتِ اللّؤلؤةُ من يده ،

واستقرّتْ وراءَ حجرٍ صغير في الممر . وكانتْ تلمعُ تحت ضوء القمر .

وخرجتْ جوانا من بين الصّخور الموجودة على طرف الماء . ولم يكنْ بها غضبٌ نحو كينو . فلقد قال لها : « إنّي رجلٌ » ، وهذا كان يعني أشياء كثيرة بالنّسبة لجوانا . ووقفتْ على قدميْها ولحقتْ بزوجها كينو . كان ظهرُها محنيّاً من شدّة الألم ورأسُها مخفوضاً .. ومضتْ على درب القش عندما احتجب القمر ، وعندما نظرتْ أمامها رأتْ لمعان لؤلؤة كبيرة في الممرّ خلف الصّخرة ، فجثتْ على ركبتيْها والتقطتْها . وفكَرتْ إذا ما كان عليها أنْ تعودَ إلى البحر وتُنهي عملَها . وفيما هي تفكّر ، رأتْ شخصيْن في الظّلام مُمدّديْن أمامَها . قفزتْ إلى الأمام ورأتْ أنّ أحدَهما كان كينو ، والآخر شخصٌ غريبٌ يرشح سائلٌ لامعٌ أسودُ من حلقه ..

تحرّك كينو ، وتمتم ببضعِ كلمات . أمّا الرّجلُ الآخر فقد كان ميّتاً ، وعرفتْ جوانا أنّ سكّين كينو

هي التي قتلتْه .. وذَهَبَ عنها الألمُ وبطء الحركة ، فأسرعتْ تجرّ جثّة الرّجل من الممرّ إلى داخل القش .. وعادتْ إلى كينو ومسحتْ وجهَه بتنّورتها المبلّلة .. وعندما استعاد وعيَه قال نائحاً : « لقد سرقوا اللّؤلؤة . لقد فقدتُها . لقد انتهى كلّ شيء . لقد ذهبتِ اللّؤلؤة . » .

هدّأتْ جوانا من روعه ، كما تُهدّئُ طفلاً مريضاً وقالتْ له : « أصمت . ها هيَ لؤلؤتك . لقد وجدتُها في الممر . أتقدرُ أنْ تسمعَني الآن ؟ ها هيَ لؤلؤتك . ألَا تفهم ؟ لقد قتلتَ رجلاً . يجب أنْ نهرب . سيأتون إلينا ، هَلْ بمقدورِكَ أنْ تفهمَ هذا ؟ يجب أن نغادرَ قبلَ طُلوع النّهار . » .

ـ « لقد هوجمت » ، قال كينو بتعب . « لقد ضربتُ لِأُنقذَ حياتي . »

ـ « ولكنْ هل تعتقدُ بأنّ هذا سيبرّرُ عملك ؟ »

وسحبَ كينو نفساً طويلاً وتحامَلَ على ضعفه ، وقال : « كلّا ، إنّك على صواب . » .. واشتدّتْ عزيمتُه من جديد وعاد رجلاً ليقول : « إذهبي إلى منزلنا

وأحضري كويوتيتو ، وأحضري كلّ الدّقيق الذي لدينا . سأجرُّ الزّورقَ إلى الماء وسنُغادر . »

وحملَ سكّينه ، واتّجه نحو الشاطئ ، وجاء إلى الزورق . وعندما بزغَ نورُ الفجر استطاع أنْ يرى ثقباً كبيراً في أسفل الـزّورق . لقد ضاع الأمل وأغلق أبوابَه المُظلمة عليه وعلى عائلته . إنّ قَتْلَ رجلٍ أسهلُ من قَتْل قارب . ولقد تحوّل إلى وحشٍ الآن ، فهو يريد الإختفاء ، والهجوم ، وهو قد عاش من أجل حفظ حياته وحياة عائلته . ولم يعد يحسّ بالألم الذي كان في رأسه .. فقفز يعدو على الشّاطئ باتّجاه منزله ، ولم يخطُرْ على باله أنْ يأخذ أحدَ زوارق جيرانه .. وهذا ما لم يخطُرْ على باله أبداً في أيّ يومٍ من الأيّام ..

وفيما هو عائدٌ إلى منزله شعر بفيضٍ من السّعادة ، وقد زال عنه القلق ، لأنه بقيَ لديه شيءٌ يفعله ، ومدّ يده إلى اللّؤلؤة العظيمة الموجودة داخل قميصه ، ثم إلى سكّينه المعلّقة تحت قميصه .. ورأى أمامَه وهجاً من النّار ، ثم لهيباً يتعالى في الظلام ويزأر ، فأسرع يعدو

نحو مصدر اللّهيب ، فإذا هو بيته يحترق .. وشاهد
جوانا تجري نحوه وهي تحملُ كويوتيتو بين ذراعيْها ...
لقد احترق المنزلُ وأصبح قاعاً صفصفاً ... وعندما
سألها كينو عمّن فعلَ ذلك ، قالتْ إنّهم أشباحُ الظّلام .

وفجأةً دبّ الخوفُ في نفس كينو ، وتذكّرالرّجلَ
القتيلَ المُلقى على القشّ بجانب الممر ، فأمسك ذراعَ
جوانا واقترب بها من ظلّ أحدِ المنازل البعيد عن مكان
الضّوء ، ثم سار وإيّاها حتى وصلا إلى منزل أخيه جوان
توماس حيث وقفا أمامَ الباب يُراقبان المنزل وانطفاءَ
أخرِ شُعلة من اللهيب ... وسمعا صيحاتِ الأصدقاء
وبكاءَ أبولونيا ، زوجة جوان توماس . وعندما خرجتْ
أبولونيا من المنزل وهي تبكي موتَ العائلة ، جاءها
صوتُ كينو يقول بهدوء : « أبولونيا ، لا تبكي .
إنّنا لم نُصبْ بأذى . » ..

فقالت : « كيف جئتُما هنا ؟ » .

فأجابها كينو : « كُفّي عن الأسئلة واحضري لنا

جوان توماس لأمرٍ هام ، ولا تُخبري أحداً عن وجودنا هنا
في هذه الزّاوية . » .

وبعد قليلٍ حضر جوان توماس وزوجتُه إلى مكان
الزّاوية حيث يختبآن .. وروى كينو لأخيه جوان ما حدثَ
معه ، وكيف قتل الرّجل .. فقال له جوان : « إنّها
اللّؤلؤة . فهناك شرٌّ في هذه اللّؤلؤة . يجب أنْ تبيعَها
وتشتري بها الأمان والسّلام لنفسك » .

أجابه كينو : « يا أخي ، لقد حلّتْ عليَّ اللّعنة
ولحقتْ بيَ المهانة . فزورقي مُحطّمٌ على الشّاطىء ،
ومنزلي قد احترق ، وهناك بين القش رجلٌ ميّت . لقد
انقطعتْ كلُّ وسائل الهرب . يجب أنْ تُخبّئنا ، يا أخي . » ..

ولاحظ كينو قلقاً عميقاً في عينيْ شقيقه ، فقال
له بسرعة : « ليس لمدّة طويلة ، بل حتى يمرَّ هذا اليوم
ويأتي يوم جديد ، وسنغادر . » .

ـ « سأُخبّئكَ . » قال جوان توماس .

ـ « لا أُريد أنْ أُعرّضَك للخطر ، فأنا أعلم أنّني

مثلُ الجُذام . سأرحلُ الليّلة ، وستكون في أمان . » ..
قال كينو .

ـ « سأحميك » ، قال جوان توماس ، ونادى :
« أبولونيا ، أغلقي الباب ، ولا أُريد منكِ حتى الهمس
بأنّ كينو هنا . »

وجلسوا صامتين طول النّهار في عتمة المنزل ،
واستطاعوا أنْ يسمعوا ما يقولُه الجيران عنهم .. كما
استطاعوا من خلال جدران المنزل أنْ يُشاهدوا جيرانَهم
وهم يفتّشون بين الرّماد عن عظامهم ... وخرج جوان
توماس من المنزل ليخبرَ الجيرانَ رواياتٍ مختلفة عن
رحيل كينو وعن المصير المجهول الذي قد يكون لقيَه
في هذه الرّحلة . وعندما اقترب المساء ، تحدّث جوان
توماس مُطوّلاً مع شقيقه قائلاً : « إلى أين ستذهب ؟ »

ـ « إلى الشّمال » ، قال كينو . « لقد سمعتُ بأنّ
هناك مُدناً في الشّمال . » .

ـ « تجنّبِ الشّاطىء » ، قال جوان توماس . « إنّهم
يؤلّفون فريقاً للبحث عنك على الشّاطىء . رجالَ

المدينة سيبحثون عنك . أَمَا زلتَ تحتفظُ باللّؤلؤة ؟ »

ـ « إنّها معي » ، قال كينو . « وسأحتفظ بها ..
قد أَهبُها هديّةً ، ولكنّها الآن هي مصيبتي وحياتي
وسأحتفظ بها » . وبدت القساوةُ والمرارةُ في عينيْه .

ـ « إنّ الرّياح مُؤاتية » ، قال جوان توماس .
« لن يكون هناك تعقّبٌ للأثر » .

وبهدوءٍ غادروا المكانَ تحت جُنح الظّلام قبل
أن يطلعَ القمر .. حملتْ جوانا كويوتيتو على ظهرها .
وعانق جوان توماس شقيقَه وقبّله على خدّيْه ، وقال
له : « إذهبْ برعاية الله . إنّك لن تسلّمَ اللّؤلؤة ؟ »

ـ « هذه اللّؤلؤة قد أصبحتْ روحي » ، قال كينو .
فإذا فقدتُها فقدتُ روحي . إذهبْ وليُحفظكَ اللهُ
أنتَ أيضاً . » .

* * * * *

ـ ٦ ـ

هبّتِ الرّياحُ عنيفةً قويّة تَرْجُمهم بقطعٍ صغيرةٍ من العصيّ ، وبالرّمال ، وبأحجار الصّخور الصّغيرة .. جوانا وكينو أحْكما الثّيابَ حولهما ولفّا أنفيْهما جيّداً وانطلقا إلى العالم .. سار الإثنان بحذر مُتجنّبين المرورَ من وسط المدينة حتى لا يراهما أحد .. ومَضيا يَشقّان طريقَهما إلى الشّمال بواسطة النّجوم .. وعندما طلع القمر استطاعا أنْ يريا طريقاً صغيراً أمامهما وعليه آثارُ عجلات . ومع اختفاء الرّيح كان من الممكن أنْ يتركا أثراً لأقدامهما ، ولكنّهما كانا على مسافةٍ بعيدة عن المدينة وقد لا يُلاحظ أحدٌ آثارَ أقدامهما .. لقد سارا طيلة اللّيل ولم يُغيّرا خطاهما ..

وعندما لاحَ فجرُ الصّباح جلس كينو وجوانا في مكانٍ آمنٍ على الطّريق .. وهنا قدّمتْ جوانا لزوجها بعضَ قطع الكعك التي كانت أبولونيا قا[illegible]تْها بها .

وبعد ذلك نامتْ قليلاً ، فيما جلس كينو يجولُ بنظره أرجاءَ المكان .. وعندما أشرقتِ الشّمسُ حارّةً ، لم يكونا قد اقتربا من الخليج .

وعندما أفاقتْ جوانا من نومها ، قال لها كينو : « إحذري هذا النّوع من الشّجرة الموجودة هناك . لا تلمسيها ، لأنّكِ إنْ فعلتِ ثم لمستِ عينيْك فسوف تُفقدكِ البصر . واحذري تلك الشجرة النّازفة هناك . لأنّك إن كسرتِها ، فستتدفّقُ منها الدّماء الحمراء ، وهذا فألٌ سيّىء . »

وهزّتْ برأسها موافقة وهي تبتسم ، لأنّها كانتْ تعرف هذه الأشياء . بعد ذلك قالتْ : « أوَسيلحقون بنا ؟ أوَ تعتقد بأنّهم سيحاولون العثورَ علينا ؟ » .

ـ « سيُحاولون ، قال كينو. « ومن سيجدُنا سيأخذُ اللّؤلؤة . إنّهم سيُحاولون . » ...

وقالت جوانا : « ربّما كان العملاء على حقّ وأنّ اللّؤلؤة لا قيمة لها . ربّما كان كلُّ هذا وهماً وخيالاً . » .

أخرج كينو اللّؤلؤة من ملابسه وَعَرضها للشّمس

حتى كاد وهجُها يحرقُ عينيْه ، فقال : « كلّا ، ما كانوا لِيُحاولوا سَرِقَتها لو أنّها عديمةُ القيمة . » .

ـ « أَوَ تعرف مَنْ هاجمكَ ؟ أَوَ كانوا هم العملاء . »

ـ « لا أعلم » ، قال . « لم أرَهُم . » ..

ثم أعاد كينو اللّؤلؤة إلى مكانها في لباسه ... وبعد ذلك استسلم لنومٍ عميق ..

وهزّ كينو حلمٌ مُرعب ، فصاح بملء حنجرته ، وتحرّكتْ يدُه في قتالٍ رمزي . ثم تأوّه ونهض فجأةً والرّعبُ بادٍ في عينيْه .

ـ « ما الخطبُ ؟ » سألت جوانا .

ـ « أصمتي » ، قال لها .

ـ « لقد كنتَ تحلمُ . » .

ـ « ربّما . » ولكنّه كان قلقاً ، وعندما قدّمتْ له قطعة الكعك أوقفَ مضغَه لها ليُصغي .. كان مُضطرباً ومنفعلاً ، ثم رفعَ سكّينَه وأخذ بتحسّس نَصْلها . وعندما أحدث كويوتيتو صوتاً على الأرض ، قال لها كينو : « هَدِّئيه . »

ـ « ماذا في الأمر ؟ » سألتْ جوانا .

ـ « لا أدري . »

ثمّ أرهفَ سمعَه ثانيةً ، وقد استقرّ وحشٌ في عينيْه . وقف ، ثم تسلّل بهدوءٍ باتّجاه الطريق . ولكنّه لم يتقدّم إلى الطّريق ، بل زحف نحو شجرةٍ مُمتلئة بالأشواك وأخذ يختلس النّظر من خلالها نحو الطّريق الذي جاء منه .. ورآهم يتقدّمون ، فتصلّبَ جسدُه وأخفض رأسَه وأخذ ينظر من بين غصنٍ مُتدلٍ .

وعلى مسافةٍ ما رأى كينو ثلاثةَ أشخاص ، إثنان منهم راجلان والثالث على ظهر جواد .. وعرف مَنْ هم ، وَسَرَتْ قشعريرةٌ من الخوف في جسده . إنّهم كانوا من مُقْتفي الأثر. وقد ظهر ذلك من خلال تحرّكهم ونشاطهم . وعندما عوَا قصّاصو الأثر مثل كلابٍ ثائرة ، سحب سكّينه ببطء واستعدّ بها .. وقد وضع خطّةً تقضي بالإنقضاض على رجل الحصان ، وقَتْلِهِ ، وأخذ بندقيّته .

وفيما كان قصّاصو الأثر يقومون بعملهم بالفحص

والتّدقيق لاكتشاف أثر كينو ، اتّجه كينو إلى المخبأ حيث كانت جوانا ، وعندما نظرتْ إليه نظرةً مُتسائلة ، قال لها : « إنّهم قصّاصو أثر . تعالي ! » وفي حالةٍ من اليأس وانقطاع الأمل ، قال كينو: « ربّما سأجدُ نفسي مضطراً للتّسليم إليهم . » .

وفي الحال هبّتْ جوانا واقفةً على قدميْها ووضعتْ يدَها على كتفه وقالتْ : « إنّ لديك اللّؤلؤة . أَوَ تعتقدُ بأنّهم سيُعيدُونَكَ حيّاً لِيقولوا بأنّهم قد سرقوها ؟ »

وتحسّس المكانَ الذي أخفى فيه اللّؤلؤة في ملابسه ، ثم قال : « سيجدونها . »

ـ « تعال » ، قالتْ له . « تعال . » .

وعندما لم يُجب ، قالتْ له : « أَوَ تَعتقدُ بأنّهم سيتركونني أعيش ؟ أَوَ تعتقدُ بأنّهم سيدعون طفلَنا حيّاً ؟ » ..

وقد كان لكلماتها المثيرة هذه وقع مؤثّر على فكر كينو ، فعادتْ عيناه تلمعُ بعلامات العنف والشّراسة من جديد ، وقال لها : « تعالي : سنذهبُ إلى الجبال . من

الممكن أنْ نفقدَهم في الجبال . » .. وجمع الحقائبَ الصّغيرة وحملَها بيد ، وحملَ باليد الأُخرى سكّينه . ثمّ أَفسح المجال في قصَب القش كي تمرّ جوانا وأسرعا باتّجاه الغرب نحو الجبال الحجريّة العالية ..

وبعد أنْ قطعا مسافةً بعيدةً وصلا إلى مكانٍ بدأت الطّريقُ فيه بالإرتفاع والصّخورُ بالكبر .. وهكذا الآنَ وضع كينو مسافةً ما بين العائلة وقصّاصي الأثر . واستراحَ عند أوّل مُرتفع ، ووقف يتطلّع نحو المكان الذي جاء منه ، ولكنّه لم يرَ أعداءَه ، ولا حتى الخيال الطّويل . وجلستْ جوانا تحت ظلّ صخرةٍ مائيّة ، ثم رفعتْ قارورةَ الماء ووضعتْها على شفتيْ كويوتيتو الذي أخذ لسانُه الجاف يمتصّ الماء بنهم وشراهة .. ونظرتْ إلى كينو عندما عاد فرأتْه يتفحّص ساقيْها اللّتيْن أصابتهما الجروح والخدوش من الحجارة وعصيّ القش، فسارعتْ إلى تغطيتهما بتنّورتها.

ورطّبَ كينو شفتيْهِ المُشقّقتيْن بلسانه وقال : «جوانا ، سأتابعُ طريقي وأنت ستختبئين . سأقودهم إلى الجبال ، وعندما يمرّون ويبتعدون ، عليكِ بالذّهاب شمالاً إلى

لوريتو أو إلى سانْتا روزالْيا . وإذا استطعتُ الفرارَ منهم ، سآتي إليكِ . إنّها الطّريقةُ الوحيدةُ الآمنة . »

ونظرتْ في عينيْه للحظةٍ ما ، ثمّ قالتْ ، « كلّا ، سنذهب معك . » .

ـ « ولكنّني أستطيعُ السّيرَ أسرعَ بمفردي » .

قال بفظاظة . « إنّك ستُعرِّضين الطّفلَ لخطرٍ أكثر إذا ما ذهبتُما معي . » .

ـ « كلّا » ، قالتْ جوانا .

ـ « بل يجب . إنّه الأمرُ الذي تَقْتضيه الحكمة ، وإنّها رغبتي . » .

ـ « كلّا » ، قالتْ جوانا .

وأمامَ خَوْفها وَضَعْفها وافق كينو على رغبتها في مُرافقته . وهكذا انطلقامعاً نحو الجبال ... وقطعا مسافةً طويلة حتى وصلا إلى الجبال وقد أخذ التّعبُ والإرهاقُ منهما كلَّ مأخذ .. ومن هناك بدا لهما الخليج على مسافةٍ ما .. بدأا ينحدران إلى الأسفل حتى وصلا مُنْهكيْن إلى الغدير حيث جثتْ جوانا على ركبتيْها وغسلتْ وجهَ

كويوتيتو ، ثم ملأتْ قارورتَها وسقَتْهُ منها .. كما أطال كينو شُربَ الماء بظمإٍ بالغ .

ثم وقف على قدميْه وذهب إلى طرف المنحدر الذي يتدفّق فوقه المياه ، وأخذ يتفحّصُ المسافة أمامَه بحرصٍ وحذر ، ووقعتْ عيناه على نقطة ما جعلتْهُ يتسمّرُ مكانَه . هناك بعيداً عند المنحدر استطاع أنْ يرى قصّاصي الأثر ؛ كانوا يبدون كنقطةٍ صغيرة أو كنمل مُسرعٍ وخلفهم نملةٌ كبيرة .. التفتت جوانا إليه فرأتْ ظهرَه مُتصلّباً ، فسألتْهُ بهدوء : « كم يبعدون عنّا ؟ » .

ـ « سيصلون هنا في المساء » ، قال كينو ، ثم نظر إلى البعيد حيث كانتِ المياه تجري وقال : « يجب أنْ نتّجه نحو الغرب . » .. وعلى بُعد ثلاثينَ قدماً رأى مجموعة كهوف ، فخلع صندله وتسلّق نحوها . وهناك اكتشف مغارةً كبيرة لا يمكن لأحدٍ أنْ يراه فيها من الخارج ، فاستراح بها قليلاً ، ثم عاد إلى جوانا بسرعة وقال لها : « يجب أنْ تصعدي إلى هناك . فربّما لن يعثروا علينا هناك . » ...

وبدون سؤال ملأتْ جوانا قارورتَها بالماء حتى قمّتها ، ثم ساعدها كينو بالصّعود إلى المغارة وأحضر أكياسَ الطّعام ومَرَّرها لها .. وجلستْ جوانا عند مدخل المغارة وأخذتْ تُراقبُه . وقد رأتْ بأنّه لم يُحاول إزالة آثارهما في الرّمال . بل بدلاً من ذلك تسلّق صخرةً قرب الماء ، ثم عاد إليها بعد أنْ تأكّد من عدم وجود آثارٍ في الممرّ هناك ، ثم خاطبها قائلاً : « عندما يُغادرون ، سوف نهبطُ إلى الأرض الواطئة . إنّ ما أخشاه فقط هو أنْ يبكيَ الطّفل . يجب أنْ لا تَدَعيه يبكي . » .

ـ « إنّه لن يبكي » ، قالتْ ، ورفعتْ وجهَ الطّفل إلى وجهها ونظرتْ في عينيْه ، فبادَلَها هذه النّظرة .

« إنّه يعلم » ، قالتْ جوانا ..

واضطجع كينو عند مدخل الكهف ، وأخذ يُراقبُ ظلَّ الجبل الممتدّ على الصّحراء .. وتأخّرَ قصّاصو الأثر في الوصول لأنّهم تعثّروا في اقتفاء أثر الطّريق التي سلكها كينو . كما كان هناك غَبَشٌ عندما جاءوا أخيراً إلى الغدير الصّغير .. كان ثلاثتهم راجلين الآن ، لأنّ

الجوادَ لم يقوَ على تسلُّق المنحدر الأخير .. أسرع اثنان منهما باتّجاه الشّاطىء الصغير ، فلاحظا خُطوات كينو على الصّخرة الصغيرة ، فجلس الرّجلُ الذي يحملُ البندقيّةَ ليستريح ، وجلس إلى جانبه الرّجلان الآخران ، وفي المساء كانتْ أطرافُ سجائرهم تشعُّ وتخبو . وتمكنّ كينو من رُؤيتهم وهم يأكلون ، وسمع أصواتَهم وهم يتحدّثون .. وحلّ الظّلام ..

وأقبلتِ الحيواناتُ التي اعتادتْ أنْ ترتادَ الغدير ، فشمّتْ رائحةَ الرّجال ، وعادتْ من حيثُ أتتْ .. وسمع كينو تمتمةً وراءَه . كانتْ جوانا تهمس : « كويوتيتو . » كانتْ ترجوه أنْ يهدأ . ولكنّ كينو عرفَ من مصدر الصّوتِ أنّ رأسَ كويوتيتو كان مُدثّراً بشال جوانا ..

وهناك عند الأسفل على الشّاطىء لَمَع عودُ ثقاب ، واستطاع كينو من خلال وهجه المؤقّت أنْ يتبيّن أنّ اثنين من الرّجال كانا نائمين ، فيما كان الثّالثُ يقوم بالحراسة . انطفأ عودُ الثقاب تاركاً صورةً في عينيْ

كينو . عرف وَضْعَ الرجّال : إثنان نائمان .. والثّالثُ مُقرْفصاً على الرّمل وبين ركبتيْه بندقيّة ... وتحرّكَ كينو بهدوء عائداً إلى المغارة ، ثم قرّب شفتيْه قرب خدّ جوانا وقال :

ـ « هناك طريقةٌ ما . » .

ـ « لكنّهم سيقتلُونكَ . » .

ـ « إذا استطعتُ الوصول أوّلاً إلى الرّجل الذي يحملُ البندقيّة ، ستسيرُ الأمورُ على ما يُرام . إثنان منهم يغطّان في النّوم . » .

وأخرجتْ يدَها من تحت شالها ووضعتْها على ذراعه قائلة : « سيَرونكَ بضوء النّجوم . » .

ـ « كلّا ، قال . « ويجبُ أنْ أذهبَ قبل طلوع القمر.».

فتّشَ عن كلمةٍ رقيقةٍ ثم قال بيأس : « إذا قتلوني ، إبْقي هادئة . وعندما يُغادرون ، إذهبي إلى لوريتو . »

ارتجفتْ يدُها قليلاً وهي تُمسكُ بمعصمه .

ـ « لا خيارَ لي » ، قال . « إنّها الطّريقةُ الوحيدة . سوف يعثرون علينا في الصّباح . » .

وارتجف صوتُها قليلاً عندما قالتْ: «إذهبْ واللهُ معك .».

اقترب منها ونظر في عينيْها الواسعتيْن .. ثمّ وضعَ راحةَ كفّه على رأس كويوتيتو للحظةٍ ما . ورفع يدَه ولمس خدَّ جوانا ، فحبستْ أنفاسها .

بعد ذلك رأتْ جوانا كينو وهو يقفُ في العراءِ تحت قبّة السّماء عند مدخل الكهف ، وهو يخلعُ ملابسَه البيضاءَ البالية حتى لا تُرى في اللّيل . إنّ جسدَه الأسمر كان خيرُ حمايةٍ له ، ثم رأته وهو يعلّقُ سكّينه بحبل حول عنقه . ولم يعُدْ إليها ، فقد ذهب .

خرجتْ من الكهف ، ووقفتْ عند المدخل تنظرُ كحمامةٍ ترنو من ثغرةٍ في جبل .. كان طفلُها على ظهرها نائماً تحت الغطاء الذي لُفَّ به ، وقد شعرتْ بأنفاسه الدّافئة تتردّد على جلد ظهرها .. وبدأتْ جوانا تتلو مزيجاً من الصّلوات وتعاويذ السّحر ، وتتوسّلُ إلى القدّيسات وأصحاب الشّفاعة الأقدمين كيْ يُبعدوا الشرّ عن زوجها . وعندما نظرتْ إلى تحت استطاعتْ أنْ ترى سيجارة الرجّل القائم بالحراسة ..

كان كينو يهبطُ على كتف الصّخرة الملساء كعظاية أو سحليّة بطيئة .. كان حذراً جداً بحيث لم يتركْ مجالاً لأيّ صوتٍ يصدر عنه قد يوقظ المراقبين تحت .. لكنّ اللّيلَ لم يكن هادئاً أو صامتاً ، فقد أطلقتْ ضفادعُ الشّجرة الصّغيرة التي كانتْ تعيشُ قُرب الجدول ، نقيقاً مثل الطّيور ، كما ملأ صوتُ الزّيزان أرجاء الجبل .. ومع ذلك ، فإنّ أغنية العائلة كانتْ تطنّ في رأس كينو طنيناً أكثر من صوتِ الزّيزان ونقيق الضّفادع .. وَواصل كينو زحفَه كشبحٍ في الظّلام حتى وصل إلى مكانٍ وضع عليه قدمَه العارية ، ولمستْ أصابعُ قدمه الحجارة ، وهكذا حتى استجمع كلَّ جسده على الأرض .

الآن ، لم يعد يفصلهُ عن العدوّ سوى عشرين قدماً .. وكان القمرُ على وشك أنْ يظهر .. وعليه إذنْ أنْ يُسرعَ في الهجوم قبلَ طلوع القمر .. وبهدوء سحب خيطَ حرزه من على كتفه وحلّ عقدةَ سكّينه ... ولكنْ ، فاتَ الأوان ، فقد بدتْ خيوط القمر الفضيّة بالظّهور فوق الجهة الشّرقية من الأفق ، فاختفى كينو غائصاً خلف شجيرته .. لقد استطاع الآن ، وعلى ضوء القمر ، أنْ

يتبيّنَ كينو ملامحَ الرّجل ، الذي أشعل سيجارةً أُخرى . لا مجالَ للإنتظار الآن ، فعندما يُديرُ الرّجلُ رأسَه ، يجب أنْ ينقض كينو عليه ..

وفي هذه الأثناء انطلق صوتُ تمتمةٍ من أعلى . أدار الحارسُ رأسه ليستوضحَ الأمر ، ثم نهض واقفاً على قدميْه ، وتحرّكَ أحدُ النّائميْن على الأرض ثم استيقظ سائلاً : « ماذا في الأمر ؟ » .

ـ « لا أدري » ، قال الحارس . « لقد دوّى صوتٌ مثل الصّراخ ، صراخُ إنسانٍ تقريباً ـ مثل صراخ طفل . »

قال الرّجل الذي كان نائماً : « إنّك لن تستطيعَ أنْ تجزم . لقد سمعتُ ذئباً يُطلق صراخاً مثل طفل . »

وتدحرجتْ حبّاتُ العَرقَ على جبهةِ كينو وسقطتْ على عينيْه وأشعلتِ النّارَ فيهما .. وجاءتِ الصّرخةُ من جديد وتطلّع الحارسُ ناحية التلّة إلى المغارة المظلمة ، وقال : « يمكن أنْ يكون ذئباً . »

وسمع كينو صوتَ قرقعة البندقيّة وهو يرفعها ويضغط على زنادها ، ثم سمعه يقول : « إذا كان ذئباً ، فإنّ هذا العيارَ النّاري سوف يُسكتُه .

كان كينو في نصف وثبة (على وشك أنْ يقفز) عندما انطلق العيارُ النّاري من البندقيّة . فلوّح بسكّينه ، وقذفها في الفضاء لتخترقَ عُنقَ الرّجل وتغورَ في صدره . لقد كان كينو الآن آلةً مُرعبة . فقبض على البندقيّة بعدما حرّر السكّين من جسد الرّجل ... قوّتُه وحَرَكتُه وسُرْعتُه كلها كانتْ عبارةً عن آلة .. دار بسرعة وضربَ رأسَ الرّجل الجالس . أمّا الرّجلُ الثالث فقد فرّ هارباً وهو يحبو على أربعته مثل سرطان مُتّجهاً نحو الغدير ، وأخذ يُحاول تسلُّق الصّخرة .

لكنّ كينو الذي أصبح بارداً وفتّاكاً كالفولاذ رفع بندقيّته وصوّبها ، ثم أطلق النار . ورأى عدوّه يقعُ على ظهره إلى الغدير ، فأسرع في خطاه نحو الماء . وفي ضوء القمر استطاع أنْ يرى عينين خائفتين ، فصوّب بندقيَّته وأطلق النّارَ بين هاتين العينين ...

وبعد ذلك وقف كينو غير متأكّد . شيءٌ ما كان يُحاول أنْ يخترقَ عقله للظنّ والإرتياب . ولكنّ عقلَ كينو صحا من هذا الموقف الدّموي وعاد يفكّر بالصّرخة التي انطلقتْ من المغارة الصّغيرة ، وكانتْ صرخة موت .

في لاباز يذكرُ كلُّ إنسانٍ عودةَ العائلة ؛ وقد يكون هناك أفرادٌ من الأقدمين الذين شاهدوا عودتَها ما يزالون على قيد الحياة ، لكنّ هؤلاء الذين أخبرهُم آباؤهم وهؤلاء الذين أخبرهُم أجدادُهم ما يزالون يتذكّرون . إنّها واقعة حدثتْ مع كلّ فردٍ هناك .

كان الوقتُ متأخراً بعد ظُهرٍ ذَهبيٍّ عندما ركض الأطفالُ الصّغارُ بشكلٍ جنونيٍّ إلى داخل المدينة ، ونشروا نبأ عودة كينو وجوانا ، وأسرع كلُّ شخصٍ لِملاقاتهما .. كان يسيران لوحدهما . كينو في الأمام وجوانا خلفه كالعادة ، ولكن جنباً إلى جنب . كانتِ الشّمسُ وراءهما وظلُّهما يمتدّ أمامهما إلى مسافةٍ بعيدة ، وبَدَيا وكأنّهما يحملان صَرْحان من الظّلام والجحيم معهما ...

كان كينو يحمل بندقيّة تحت إبطه ، وجوانا تحملُ شالَها كحقيبةٍ فوق كتفها . وكان هذا الشّالُ مُغطّى بالدّماء الجافة . كان وجهُها صلباً تعلوه علاماتُ التّعبَ والإرهاق .. أمّا كينو فقد كانت شفتاه ضامرتَيْنِ ، وفكّاه مشدودَيْنِ ، حتى قال الناس أنّه كان يحملُ خوفاً داخلَ نفسه ، وأنّه وزوجتَه قد مرّا بتجارب إنسانيّة

أبْعدَتْهما عن الإنسان . وهكذا تراجع النّاس الذين احتشدوا وتدافعوا لِرُؤْيتهما إلى الوراء مُفسحين لهما الطّريق كي يمرّا ، ولم يتحدّثا إليهما بشيء .

سار كينو وجوانا وسطَ المدينة وكأنّها لم تكن . عيناهما مُركّزتانِ إلى الأمام فقط ... سيقانهما تتحرّكُ قليلاً بارتجاف ، مثل دُمىً خشبيّة ، وكأنّهما يحملان أعمدةً من الخوف الأسود حول هذه السّيقان ..

وفيما هما يسيران وسطَ مدينة الحجر والآجر ، كان السّماسرةُ ينظرون إليهما من بين قضبان النّوافذ والخدمُ ينظرون بعينٍ واحدة من كُوّةِ الباب والأمّهاتُ يُحوِّلنَ نظرَ أطفالهن عنهما .. وتابعا سيرهُما حتى وصلا إلى مدينة منازل القش . رفع جوان توماس بده مُحيّياً ولم يُلق التّحيّة .

في أُذنيْ كينو كانتْ أغنيةُ العائلة عنيفةً كصراخ . ومرّا من قرب بيتهما المحترق ولم يلتفتا إليه . وأخيراً جاءا إلى الشّاطىء ، ولم يلتفتا أيضاً إلى زورق كينو المُحطّم . وعندما وصلا إلى حافة الماء توقّفا وجالا [illegible] نحو

الخليج .. أنزلَ كينو البندقيّة ، وبحث في ملابسه ، وأمسك باللّؤلؤة الكبيرة في يده ونظر إليها . ورأى على وجه اللّؤلؤة عينيْ الرّجل الخائف في الغدير ، كما رأى على وجهها كويوتيتو مُمدّداً في المغارة الصّغيرة ورأسُه مُصابٌ بعيارٍ ناري . لقد رأى فيها كلَّ ما هو قبيح وخطيئة ..

ارتجفتْ يدُ كينو قليلاً ، ثم استدار نحو جوانا ببطء وبسط لها اللّؤلؤة على كفّه . وقفتْ إلى جانبه ، وهي ما تزال تحمل صُرّةَ الميّت فوقَ كتفها . نظرتْ إلى اللّؤلؤة في يده للحظةٍ ، ثم نظرتْ إلى عينيْه وقالتْ بصوتٍ مُنخفض .. « كلّا ، أنت . »

وسحبَ كينو ذراعَه إلى الوراء وقذف اللّؤلؤة بكلّ قوّته .. ووقفا ينظران إليها وهي تسقط في الماء وتستقرّ في القاع .. وصدحتْ موسيقى اللّؤلؤة عائمةً ومُتحوّلةً إلى همسة .. ما لبث أنْ زالتْ واختفت .

* * * * * *

تحليل وتعليق ..

شخصيّات القصّة :

كينو : رجلٌ هنديٌّ ـ مكسيكي ورث الفقر عن آبائه وأجداده .. وعاش وسط مجتمعٍ فقيرٍ في بيوتٍ من القش ، اعتمد أفراده في كسب عيشهم ومتطلّبات حياتهم على صيد الأسماك واللآلئ الصّغيرة التي كانت تُباع بأسعار بخسة لحيتان الحياة الذين اعتادوا ابتلاع عرق ومجهود الأسماك الصغيرة من إنسان الحياة ! !

وكان كينو أحدَ هؤلاء الذين نُكبوا في العيش .. كان يعملُ صيّادا وغطّاساً في البحر القريب من بيته ، ليُعيلَ ما يحصل به من قليل من المال على نفسه وعلى زوجته ، جوانا ، وعلى طفله الوحيد ، كويوتيتو .

لم يكن قانعاً بهذا العيش الذي كان يُعرّضه لأكثر من

سوط ألم وعذاب في الرّوح والنّفس .. ولكنّه كان مُرغماً على قبول هذا الواقع المؤلم ليقوم ببعض مسؤولياته تجاه العائلة التي لم يكن لها من ذنب في الحياة سوى أنّها التصقتْ به روحاً ودماً في عذاب الدنيا وآهاتها ! ..

ومع ذلك ، فإنّ أفكاره كانتْ تعمل .. ولم تتوقّف يوماً عن التّفكير بالخروج من نفق الحياة المظلم .. وبناء الحياة التي يحلم بها ... وكاد الحلمُ يُصبح حقيقة عندما عثر على لؤلؤة ثمينة في البحر .. وظنّ كلّ مباهج الحياة ستُصبح ملكه عندما يبيعُ هذه اللّؤلؤة ... ولكنّه صُدم فيما ظنّ وحسب !.. فاللّؤلؤة لم تكن تُساوي هذا الحلم الكبير ـ أو هكذا زيّن له سماسرة اللآلئ غشّاً وخداعاً من أجل الإستيلاء على اللّؤلؤة بأبخس الأثمان ...

لقد قاسي وتعذّب وتحمّل الكثير الكثير من أجل أن يحصل على ثمن حقيقي لهذه اللّؤلؤة يُنقذه من وهدة البؤس والشّقاء .. ولكنّه فشل في مسعاه وتحقيق أمانيه .. وفي لحظة من لحظات الاشمئزاز واليأس قذف باللّؤلؤة إلى البحر ليتخلص من معاناة أصبحت أشدّ وطأة على

نفسه من الفقر الذي أوغل فيه .

* * * * *

جوانا : شريكةُ زوجها كينو في العذاب والمعاناة .. كان كلُّ أملها أن يتحقّق حلمُ زوجها لتتحقّق أحلامها في الحياة .. فوقفت إلى جانبه وقفة رجل عنيد .. تسانده وتشدّ من أزره كي يصل إلى مبتغاه ـ مبتغاها ـ ...

كانتْ هادئة ومطيعة تمتثل لكلّ أمرٍ يصدر عن زوجها .. ومَنْ كان لها في الحياة سوى زوجها ووليدها الوحيد ، كويوتيتو .. ولكنّها وإزاء الخطب المدلهم والخطر المحدق بسبب اللّؤلؤة ، تمرّدت جوانا على زوجها ؛ وتحوّل الحمل الوديع إلى لبؤة شرسة تنشب أظفارها في وجه كلّ مَنْ يتهدّد مصير العائلة .. واللّؤلؤة هي مَنْ يتهدّد العائلة ووجودها .. فحملتْها في هزيع ليل ، وانطلقت بها إلى خارج المنزل ، لتُلقي بها ، بشرّها إلى البحر .. ولكنّها ، وإن كانت قد تحوّلتْ إلى لبؤة شرسة من أجل الحفاظ على كيان العائلة بالخلاص من

اللّؤلؤة ، فقد تحوّل زوجُها أيضاً إلى ما يشبه الحيوان المفترس ، من أجل الحفاظ على اللّؤلؤة .. واستسلمت للزوج « الحيوان الثائر » .. واستسلمت لركلات أقدامه وضربه المبرّح ، وأعادت له اللّؤلؤة . وعادتْ لتقف إلى جانبه من جديد في أحلك اللّحظات التي مرّ بها في معركته ضدّ الطّامعين في اللّؤلؤة .. حتى نهاية المطاف ...

كويوتيتو : ولعلّه المحرّك الأوّل والدّافع الرئيسي لأحلام والده كينو في الإثراء السّريع وبناء المستقبل السعيد للعائلة .. كيف لا ... وهو وحيدُ والديْه ؛ وهو بحاجة ـ كما قال كينو ـ إلى مدرسة وتعليم ، وملابس جديدة فاخرة ، وبذلة بحريّة أميركية .. كيف لا ... وقد لسعه عقربٌ وهو في سريره ـ صندوقه الخشبي ـ المعلّق بالحبال ، ورفض الطّبيب معالجته لأنّه من جنس يجب أنْ لا يتجرّأ ذووه في الذّهاب إلى طبيب المدينة الذي لا يُعالج إلا أطفال الأغنياء والموسرين .. ومَنْ يدفع كثيراً من المال ...

وهكذا .. من أجله ؛ من أجل كويوتيتو ، الطّفل

الملسوع البريء ، حارب كينو العالم الذي لا يرحم الفقراء والضّعفاء !

الطّبيب : أنموذج سيّيء ورديء لبعض أعضاء الجسم الطّبي ..

فهو صورة قبيحة وبشعة للطبيب اللاّإنساني الذي يستغلّ أشرف مهنة في الوجود ليصل إلى مبتغاه في الإثراء والجاه على حساب الآلام والدموع .. آلام ودموع بني البشر !

فقد أوصد بابه في وجه العائلة عندما جاءته لمعالجة الطّفل من لسعة العقرب .. وتنكّر لشرف الرسّالة والقَسَم لأنّ العائلة لا تملك دفع قيمة الأتعاب ! .. وسعى إليها في منزل القش لمعالجة الطّفل عندما سمع بأمر اللّؤلؤة الثمينة ! ...

والطّبيب هنا تجسيدٌ حي .. وواقع عملي للنّفاق والرّيـاء عند أهل الحياة ؛ ومن بينهم طبعاً بعض الأطباء الذين يختفون وراء أثوابهم البيضاء من أجل تحقيق بعض المنافع والمكاسب الماديّة ! ...

الكاهن : إنّه هنا ، يُمثّل العلاقة بين الكنيسة والمواطنين

الهنود ؛ فهو يُعاملهم على أنّهم أطفال لا أكثر .. ويُبدي اهتماماً بالغاً بتصليح وترميم ممتلكات الكنيسة .. لذا ، نراه يسعى مع السّاعين للحصول على بركة ورضى كينو من أجل الحصول على حصّة ـ لا يدري كم هي ـ من ثمن اللّؤلؤة !



ـ « عقدةُ القصّة » ـ

من سياق القصّة يتبيّن للقارئ بعضَ ما يُعانية فريقُ من أهل الحياة في هذه الحياة !. إنّها تُلقي ظلالاً على جوانبَ كثيرة من هذه المعاناة التي تتجلّى بالفقر والمرض والتّعاسة عند هؤلاء النّاس .. وكينو وعائلته كانوا من هذا الفـريق الشّقيّ التّعس !! لقد جاؤوا الحياة مثل بقيّة أهل الحياة ، وللحياة وجهان : وجه سعادة ووجه شقاء .. وقد أختارهُم الوجه الثّاني منها ليطفوا بهم على سطح الحياة زبداً وكمًّا مهملا !..

لقد كافح كينو وناضل من أجل لقمة العيش له ولعائلته المكوّنة من زوجةٍ صابرة ـ هي كالرّجال في صبرها ودمعها ـ ، وطفلٍ وحيد هو كويوتيتو ... وكان قانعاً راضياً بما كتب له القدر وشاء ! ولكنْ ، وكما

يُقال في المثل العامي : « رضيتُ بالهموم ، وما رَضِيتِ الهمومُ بي ! » ... فقد حلّتْ به وبالعائلة نكبةٌ جديدة تفوق نكبةَ الفقر والتّعاسة والشّقاء ... ولده الوحيد .. ثروتُه الوحيدة وأمله في الحياة ، لسعه عقربٌ غادر وهو نائمٌ في صندوقه الخشبيّ المعلّق بالحبال في منزل القش .. وهنا بدأتْ معركتُه مع الحياة .. هـذه المعركة التي لم تُحرّكها وخزاتُ ولسعاتُ الفقر المدقع ، بل لسعة العقرب ...

ذهب به إلى الطّبيب ، فرفض استقباله ومعالجته لأنّه من أهل الفقر .. أدمى يده ضرباً على باب منزل الطّبيب يستجدي الشّفقة والرّحمة لولده ، فلذة كبده ، الذي يموت بين يديْ والدته .. ولكنْ عبثاً .. وهل يستجيبُ البلدُ القفارُ ؟! هل يستجيب القلب الخاوي من الشّفقة والرحمة ، ولا يَعرف سبيلاً إليه سوى بريق المادّة والمال ؟!

ويعود كينو وزوجُه وطفلُه إلى منزل القش والألم يعتصرُ القلوبَ النّازفة بدم الحقد الأسود على الطّبيب الجشع الشّره ! بل على كلّ أهل الحياة ! بل وبنوع خاص

على الفقر الذي يكاد يختطف روحَ الطّفل البريء !

ويعثرُ كينو ، وهو الغطّاس الماهر ، على لؤلؤة كبيرة ثمينة .. وتلوحُ بوادر الفرج وتحقيق الأمال في الآفاق .. آفاق الفكر الذي بدأ يحلم ويخطّط للخروج من عتمة الفقر وظلامه القاتل المُذل ..

وتكبرُ الآمال .. وتكبر المؤامرة .. وهو يُمنّي النّفسَ بالحصول على ثروة عظيمة ثمناً لهذه اللّؤلؤة يكفل بها مستقبل طفله الوحيد ..

سماسرة شراء اللآلئ ، الذين سمعوا بالنّبأ ، يُمنّون النّفس بالحصول على اللّؤلؤة بثمن بخس ، ويتّفقون فيما بينهم على هذا الأمر .. ويرفض كينو عرض هؤلاء السّماسرة ، ويُزمع السّفر إلى مكانٍ آخر من العالم ليحصل على ثمن حقيقي للّؤلؤة .. وتظهر الأشباح .. ويُواجه بمؤامرةٍ أُخرى للإستيلاء على اللّؤلؤة .. ويبدأ الصّراع .. ويكاد يدفعُ حياته ثمنا للإحتفاظ باللّؤلؤة .. وتغيب عنه صورة الإنسان .. ويتحوّل إلى وحشٍ كاسرٍ يُحطّم كلّ شيء أمامه .. يضرب زوجته بعنف .. ويقتل

رجلاً في ظلام اللّيل .. ثم يفرّ ويهرب إلى الجبال مُطارداً من هذه الأشباح .. ويموت الطّفل بطلقةٍ ناريّة من هؤلاء المطاردين .. ويموت معه الأمل الذي كان يعيش من أجله كينو .. ويزداد تعطّشاً للدّماء ـ دماء الذين أهرقوا دم الحياةَ فيه ـ طفله الوحيد ـ ، كويوتيتو ، فيقضي عليهم واحداً تلو الآخر بكراهية ووحشية وحقد !

وفي لحظة من لحظات اليأس من الحياة ـ وقد غاب أملها الذي كان يشدّه إليها ـ ، يُلقي باللّؤلؤة إلى عرض البحر ! وهكذا يُسدل الستار على مأساة إنسان الفقر ، بمأساة أخرى أشدّ وقعاً وإيلاماً ، هي فقد الطّفل الوحيد .. وتلاشي كل آمال الحياة ! .. لقد أراد أن يحيا الطّفل .. ويموت الفقر .. فمات الطّفل .. وعاش الفقر ! !

سيف الدين الخطيب

أسئلة حول القصّة

١ ـ عرّف شخصيّات القصّة ...

٢ ـ مَنْ هي الشخصيّة المميزّة في القصة .. ولماذا ؟

٣ ـ على ماذا اعتمد الكاتب في تأليف القصّة ؟

٤ ـ في أيّ مجتمع عاش كينو ؟

٥ ـ ماذا كان يفصله عن العالم الآخر ؟

٦ ـ إعقد مقارنة بين مجتمع كينو والمجتمع الآخر في القصّة ..

٧ ـ صِفْ مُجتمعيْن مُماثليْن في هذا العصر .

٨ ـ ما هما الإتّجاهان اللذان ركّز عليها الكاتب في القصة ؟

٩ ـ أُكتب وصفاً أدبيّاً للحالات اليوميّة التي يعيشها كينو وعائلته ...

١٠ ـ صِفْ لحظات الخوف والقلق التي عاشها كينو وزوجته عند ظهور العقرب فوق صندوق الطّفل المعلّق ، وحتى ساعة لسعه .

١١ ـ صوِّرْ موقف الوالديْن بعد أنْ لسع العقربُ الطّفل . وماذا فعلا .

١٢ ـ ماهو الإطار الفنّي الذي استُخدم في معالجة نقل الخبر إلى الجيران ؟

١٣ ـ صِفْ موكبَ الزّحف إلى الطبيب ، وكيف انتهى .. وكيف اتخذتِ المناسبة منبراً لبثّ الخلجات والخواطر .

١٤ ـ ماذا أوحى إليك رفضُ الطّبيب لاستقبال ومعالجة الطّفل من مشاعر وأفكار إنسانيّة ؟

١٥ ـ كيف تمّ العثورُ على اللّؤلؤة ؟

١٦ ـ بأسلوبٍ أدبي ، صِفْ رحلةَ الأفكار والأحلام التي عاشها كينو بعد العثور على اللّؤلؤة ...

١٧ ـ إلى ماذا كانتِ الأُغنيات ترمز عند أهالي بيوت القش ، وكيف عبّر عنها كلٌّ من كينو وجوانا ؟؟

١٨ ـ هل تغلّب إحساس كينو بفرح العثور على اللّؤلؤة على إحساس كينو بالخوف على طفله الملسوع .. ولماذا ؟؟

١٩ ـ إنّ المدينة هي شيءٌ شبيهٌ بالجسد البشري .. فللمدينة جهازٌ عصبيّ ورأسٌ وأكتاف وأقدام . وكلّ مدينة تختلف عن المدن الأخرى ، بحيث لا توجد مدينتان

متشابهتان .. وللمدينة عاطفةٌ كليّة تسود الجميع ..
ماذا يُقصد بهذا النّصّ الأدبي .. وماذا يستهدف هذا التّعبير في غايته الرئيسيّة التي استدعت مثل هذه البلاغة والإستعارات ؟؟

٢٠ ـ عندما علم الناس بأمر اللّؤلؤة ، ماذا فعل كلٌّ من الطّبيب والكاهن ؟ علّق ...

٢١ ـ ما هي خطّة سماسرة اللآلئ ؟ وهل نجحت ؟ وكيف ؟..

٢٢ ـ هل استسلم كينو للمؤامرة ؟ وماذا عزم أن يفعل ؟

٢٣ ـ ما هي الهمسات التي دارت على شفاه الجيران بصدد كينو واللّؤلؤة بعدما فشل في بيعها بالثمن الذي كان يرتجيه ؟

٢٤ ـ ما هي أبرز المخاطر التي تجلّت وأحاطت بكينو في سلسلة المؤامرات الهادفة لانتزاع اللّؤلؤة ، والتي باتت تهدّد حياته وحياة العائلة ؟

٢٥ ـ إزاء هذه المخاطر ، ماذا كان موقف جوانا قولاً وعملاً ؟

٢٦ ـ كيف تخطى كينو حدود ذاته واتخذ صفة الحيوان بالضعف والشّراسة ؟

٢٧ ـ كيف بدأت المواجهة بين كينو وأشباح الظّلام ؟

٢٨ ـ كيف بدأت المطاردة .. وكيف انتهت ؟؟

٢٩ ـ كيف عبّر كينو عن خسارته لطفله كويوتيتو ؟

٣٠ ـ ما هو رأيك بهذه القصّة ؟ وهل وُفّق الكاتب في حبكها ومضمونها ؟



دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع
طرابلس لبنان - تلفون ٦٣١٢٨٢



قصص عالمية

اللؤلؤة

Zaila'a